

مؤسسہ عبداللہ گزُون الحسینی
للثقافة والبحث العلمي

أَكْبَرُ الْفُتُوحَاءِ

تأليف

العلامة الأديب

عبد الله گزُون



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
أسسها محمد باقر
سنة 1371 هـ - 1951 م

أدب الفقهاء

تأليف
العلامة الأديب
عبد الله كنون



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kolob Al-Ilmiyah

DKi

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : أدب الفقهاء

Title : ADAB AL-FUQAIĤ

التصنيف : أدب

Classification: Literature

المؤلف : العلامة الأديب عبد الله كُنُون

Author : Abdellah Guennoun

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages 264 عدد الصفحات

Size 14.5 x 21.5 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان

Edition : 1st الطبعة : الأولى عن دار الكتب العلمية

baydoun@al-ilmiyah.com

sales@al-ilmiyah

info@al-ilmiyah.com

http://www.al-ilmiyah.com

طبع بإذن خاص
من مؤسسة عبد الله كُنُون الحسني
للثقافة والبحث العلمي

جميع الحقوق محفوظة

2014 A.D - 1435 H.

**Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1871 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN-13: 978-2-7451-8342-2

ISBN-10: 2-7451-8342-7

90000
9 782745 183422

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا بحث طريف في موضوع أدبي شائق ، طالما أغفله الكتاب وتجنّى عليه النقاد ، وهو أدب الفقهاء وأعني شعرهم المغموز ظلماً بالضعف ، والمضروب مثلاً لكل شعر ليس بذلك . فالآن أو انْ إنصافه ورد الاعتبار إليه .

وقد قسمته قسمين ، قسماً تناولت فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص ، وقسماً تعرضت فيه لموضوعاته وأغراضه على سبيل البسط والتعريف .

ولم يكن باعني عليه إلا أريحية الأدب والاهتمام بجمع شوارده ونظم فرائده التي درج مؤلفو الآداب على استبعادها من النصوص الأدبية لمجرد أنها إنتاج طائفة من الأدباء غلب عليهم وصف آخر غير الأدب وهو الفقه والعلم ، مع أن في دراستها وعرضها العرض الذي يجلو محاسنها متعة وإثراء لأدبنا العربي الأصيل .

ومن هُنا يُعلم أن قصدي من المحاماة عن أدب الفقهاء
هو توجيه الدراسات الأدبية إلى استيعاب أعمال الأدباء بالمعنى
الواسع وعدم الاقتصار على المنتخبات المعروفة ، والأسماء
الرسمية ، فإن في كنوز الأدب العربي ألقاً وذخائر
ما زالت لم تدرس أو لم تُستكشف بعد .

وعسى أن يكون في هذا العمل ما يثير الانتباه إلى هذه
الكنوز المنسية ويحمل على استخراج محتوياتها النفيسة .

عبد الله كنون الحسني



أدب الفقهاء

القسم الأول

مادّته وأحكامه

مدخل

روى العلامة ابن خلدون عن ابي القاسم بن رضوان كاتب
العلامة السلطانية بالدولة المرينية قال : ذاكرت يوماً صاحبنا
أبا العباس أحمد بن شبيب (الجيزنائي) كاتب السلطان أبي
الحسن المريني ، وكان المقدم في البصر باللسان لعهدده ، فأنشدته
مطلع قصيدة أبي الفضل ابن النحوي ، ولم أنسبها إليه ، وهو
هذا :

لم أدر حين وقفتُ بالأطلال

ما الفرقُ بين جديدها والبالى

فقال لي على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين
لك ذلك ؟ قال من قوله « ما الفرق ؟ » إذ هي من عبارات
الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب .

وهذا صحيح فإن لكلام العرب أساليب لا يحدِّقها إلاّ
من مارسها أشدّ الممارسة ، وكان محفوظه من النظم والنثر
كثيراً جداً ، فهو إذا أراد الانفاق أنفق من سعة ، ولم يقع
في ضائقة تلجئه إلى القصور عما يريد التعبير عنه ، وهل
الكلام إلاّ من الكلام ؟

ونتخذ الجيزنائي نفسه مثلاً لصدق هذا القول ، فقد كان

يحفظ عشرين ألف بيت من شعر المحدثين فقط ، فما ظنك بما كان يحفظه من شعر الأقدمين ؟ ولذلك نبغ منه شاعر عظيم وناقد كبير قال فيه ابن خلدون : « وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين وكانت له الامامة في نقد الشعر » .

على أن الحفظ وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من الملكة ، وهي الاستعداد النفسي الذي ينميه الحفظ وتصفله الممارسة .

والمملكةُ غيرُ الذوق الذي يتحدث عنه علماء البيان ويقولون أيضاً أن الحفظ لكلام العرب والممارسة لأساليبها في النظم والنثر مما يُكوّنُهُ ويُرَبِّيهِ ، فإن الملكة هي طاقة الانتاج وتحتاج إلى الذوق ليكون الانتاج رفيعاً . والذوق معيار النقد فصاحبه يعرف وجوه الحسن والقبح في الكلام ولكنه لا يكون أديباً إلا إذا كان صاحبَ ملكة . وقد كان في العرب نقاد لهم بصر بجيد الشعر وبلغ النثر ولكنهم لا يستطيعون إنتاج أثر مّا في أي باب من أبواب القول . ومنهم الأصمعي الذي قيل له : لم لا تقول الشعر مع سعة روايتك له ومعرفتك مجيده ورديته ؟ فقال : الذي أريده منه لا يأتيني ، والذي يأتيني لا أريده .

وفي زمننا هذا الدكتور طه حسين مثلاً فإنه على رسوخ قدمه في نقد الشعر لا ينظم منه شيئاً .

وهناك من يجمع بين الملكة والذوق فيكون أديباً وناقداً ،
كاتباً وشاعراً كالعقاد من المعاصرين وصاحبنا الجزنائي
من المتقدمين .

والغريب فيه أنه كان صاحب ثقافة علمية واسعة إلى ثقافته
الأدبية المتينة . فقد كان بارعاً في العلوم العقلية من الفلسفة
والتعاليم والطب ، وتهتك في الكيمياء القديمة حتى عُرِفَ
بذلك ، ولم يمنعه هذا من أن يكون شاعراً فحلاً ، ولا جعل
أدبه أدب فقهاء أو علماء بتعبير آخر ، مما يدلّ على أنه لا
مناقضة بين الفقه والأدب والعلم والشعر ، وأن القضية
إنما هي قضية تمكّن من المادة الأدبية نظماً ونثراً إلى ملكة
قوية وذوق مهذب ، وإن كان صاحب ذلك اماماً في الفقه
ورأساً في العلم . ويرحم الله الشافعي إذ يقول :

ولولا الشعرُ بالعلماء يزري
لكنتُ اليوم أشعرَ من لبيد

ونحن نرى اليوم علماء مختصين برعوا في الأدب وفي الشعرِ
بالذات حتى غطّى أدبُهم على علمهم ، منهم الدكتور أحمد
زكي ابو شادي والمهندس علي محمود طه ، وكلاهما من
أصحاب الدواوين المتعددة فلتنظر .

ومن شعر الجزنائي الذي ينمّ عن نفسه العالي هذه الأبيات

التي يقولها في التشوق إلى الحبيب :

يا مُوحشي والبعد دون لقائه
أدعوك عن شَحْط وإن لم تسمع

يُدنِّيك مني الشوق حتى إنني
لأراك رأيَ العين لولا أدمعي

وأحنّ شوقاً للنسيم إذا سرى
بحديثكم وأصيح كالْمستطلع

كان اللقاءُ فكان حظي ناظري
وسطا الفراقُ فصار حظي مسمعي

فابعثْ خيالك تهديهِ نارُ الحشا
إن كان يجهل من مقامي موضعي

نقد كلمة الجزنائي

ونعود إلى كلمة صاحبنا وحكمه على بيت ابن النحوي
بأنه شعر فقيه من قوله : « ما الفرق » لأنها من عبارات الفقهاء .
فهل مجرد استعمال عبارة من عبارات الفقهاء أو غيرهم من
العلماء يخرج الشعر عن كونه شعر أديب ؟

ولإذن فبماذا نحكم على قول شاعر العرب الأكبر أبي
الطيب المتنبي :

تخالف الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم
إلاّ على شَجَبٍ والحُلْفُ في الشجب

ف قيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسمَ المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكرُ بين العجز والتعب

وقد استعمل عبارة تخالف الناس ولفظ الحلف وجملة
حتى لا اتفاق لهم وكلمة فقيل تَلَتَتْهَا وقيل أخرى على سبيل
التفصيل وكل ذلك من عبارات الفقهاء والنحويين وغيرهم
من العلماء ، وهذا عنده وعند غيره من الشعراء كثير
لا يخفى على الجزنائي ولا على من دونه معرفة وتحصيلاً ،
بل ان علماء البديع يذكرون نوعاً من المُحَسِّنَات يسمونه
المذهب الكلامي وهو ما يُحتج فيه على المطلوب بحجة تشبه
حجج علماء الكلام . وثمّ أيضاً الاقتباس وهو الاخذ من
مصطلحات العلماء على اختلاف اختصاصاتهم وقد وقع في
كلام المتنبي نفسه كقوله مُقْتَبِساً من علم الفقه :

بَلَيْتُ بِلَى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمهُ

ففي تغرّمي الأولى من اللحظ مهجتي
بثانية (والمتلفُ الشيء غارمُهُ)

واشتهر قول الشمس بن العفيف حتى بين المطربين ودخل
في القطع الشعرية المستعملة في الموسيقى الاندلسية وهو :

يا ساكناً قلبي المعنى وليس فيه سواك ثان
لأني معنى كسرت قلبي وما التقى فيه ساكنان

وفيه اقتباس قاعدة نحوية معروفة بالفاظ النحاة واصطلاحاتهم
فهل ما يتواضع عليه أهل البيان ويقع في كلام المبرزين من
أمرء الشعر ويتنغم به أصحاب الفن يُعدّ من الأدب المدخول
ويكون في نظر الناقد الأدبي ليس بذلك ؟ !

وجاء في قصيدة لأبي العتاهية هذا البيت في الاتعاظ بالموتى
والقبور :

ولقد وقفتُ على القبور فما فرقتُ بين العبد والمولى

وهذه هي عبارة البيت الذي انتقده الجزنائي تقريباً ، ولا
قائل بأن أبا العتاهية ليس بشاعر أو أن شعره شعر فقيه .

أما إذا نظرنا إلى الأدب الحديث وخاصة هذا الشعر الذي
يسمى بالشعر الحر ، فإننا نجد قد كسر هذه الموازين ولم يعبأ
بتقليد من هذه التقاليد الأدبية حتى أنه يقع في تعابير نابية عن
الذوق ويقتبس من اصطلاح البحارة والحمالة ومن اليهم

بله اصطلاحات العلماء وذوي الاختصاص في مختلف فنون المعرفة .

ولعل الحكم الصائب في هذه المسألة هو أن المدار على وضع الكلمة أو المصطلح في الجملة أو الفقرة التي تتضمنها فإن كان ذلك مما لعب فيه الذوق الفني دوره وأداه بعناية ، كان مقبولا ومستحسناً وإلاّ بأن تقلّلت العبارة وضاحت باللفظة المقتبسة فإن من حق الناقد أن يدين الأثر الأدبي الذي يقع في هذا المحذور ويحكم عليه حكماً مُسمّطاً . ونحن إذا اعتبرنا موقف الحيرة التي استولت على شاعرنا الفقيه حقاً ، وما اعتراه من الدهول عند رؤيته لأطلال منازل الأحبة ، وتشتّت فكره بين ذكر العهود التي سلفت له في هذه المنازل وما آل إليه أمرها من الدروس والدثور ، نرى أنه عبّر عن شعوره بما فيه بلاغ وأدى ما يحول بخاطره في بيت شعري مؤثر ، بقطع النظر عما استعمل فيه من الألفاظ المعهودة عند الفقهاء أو غيرهم ، لأن المهم هو أنه صور مشاعره ونقلها إلينا بما جعلنا نحس إحساسه ولا زائد ، وليس هو بأولى من المتنبي وغيره من الأدباء الذين ليسوا بفقهاء ، يتجنب استعمال العبارات العلمية والاقتراس من المصطلحات الفنية .

أبو الفضل بن النحوي

على أن شاعرنا أبا الفضل بن النحوي يُعدّ من الشخصيات

المزدوجة الثقافة ، فهو مع رسوخ قدمه في الفقه له البراعة
في الأدب والشعر ، وحسبك منه قصيدته المعروفة بالمنفَرَجَة
التي اشتهرت بين العلماء والأدباء على السواء حتى نسج على
منوالها كثير من الشعراء فعارضوها وشطروها . وهي التي
يقول في أولها :

اشتدّي أزمةً تنفرجي قد آذنَ صُبْحُكَ بالبلج
وظلامُ الليل له سرجٌ حتى يأتيَ أبو السّرج
وسحابُ الخير لها مطر فإذا جاء الابّانُ تجي

واشتهر من شعره أيضاً هذان البيتان :

أصبحتُ فيمن لهم علمٌ بلا أدب
ومن لهم أدبٌ عارٍ عن الدين
أصبحتُ فيهم غريبَ الشكل منفرداً
كبيت حسان في ديوان سَحْنون

والشطر الأخير هو مما جرى مجرى الأمثال ، وقد يستشهد
به من لا يعرف معناه . وبيانُه أنه ورى بكتاب المدونة المعروف
في الفقه المالكي وسماه ديوان سحنون لأن سحنون الفقيه هو
مؤلفه ، والمدونة على كِبَرها وكونها تقع في أربعة مجلدات
ضِخام ليس فيها شعر إلا بيتُ حسان بن ثابت شاعر النبي
(ص) الذي يقول فيه مُعَرِّضاً بقضية بني النضير :

وهانَ على سَراةِ بني لُؤيَ حريقُ بالبُويَرةِ مُستطيرُ

أدب الفقهاء باب واسع

وأدبُ الفُقهَاءِ مادةٌ خِصْبَةٌ للدراسة ، وباب واسع يتضمّن فنوناً وأغراضاً مختلفة ، بعضها مما يقلّ نظيره في أدب غيرهم . فهو يشتمل على شعر وجداني من الطبقة الرفيعة يعبر عن أعمق المشاعر الإنسانية ، وأرقّ العواطف القلبية . ومنه شعر فلسفي يتناول مطالب النفس العليا ويتحدث عن الروح وعالمها النسيح ، ومشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك . أما الأخلاق والآداب ، شرعيةً وسياسيةً ، فأدب الفقهاء هو منبعّها الذي لا ينضب ، ومنجمّها الذي يحتوي على ثروة طائلة لا نفادَ لها . ويمدحُ الفقهاء ويرثون كثيرهم من الأدباء . وربما هجّوا ولكنهم لا يتخذون ذلك حِرْفَةً كما يفعل غالب الأدباء . على أن مدحهم لا يكون لطلب دنيا ونيل جائزة من صاحب ولاية أو سلطان . إنهم كانوا لا يرغبون في القُرب من الملوك ولا يتعلّقونهم إلّا من شدّة منهم ، ولذلك فإن أكثر مدحهم للرسول (ص) وأهل الفضل والكمال ، وتكتسي أمداحهم حلة خاصة من السمو الروحي لصدورها عن إيمان صادق بالمدوح وكمالاته النفسية التي لا تشبه أوصاف المدوحين العاديين . ومن ثمّ فإن كثيراً

من أمداحهم يُتَغَنَّى بها ويكون لها من القبول ما ليس لأمداح
فحول الشعراء . وحين تكون هذه الأمداح في تمجيد الذات
العلية والتغني بالحب الإلهي فإنها تكتسب فوق ذلك صفة
القداسة لدى جماعة المتصوفين .

وهناك مواضيع أخرى لأدب الفقهاء ، ونماذج هي أقرب
ما تكون للشعر القصصي ، كبردة البوصيري وهمزيتة ،
فإنها وإن كانت تعتمد المادة التاريخية في مضمونها ، لا تألو
جُهداً في استخدام الخيال وتجسيم الصور وإثارة العواطف
بما يجعل شكلها قريباً جداً من هذا الشعر القصصي الذي كثيراً
ما يُتحدَّثُ بخلو الأدب العربي منه . وعلى الأقل فإن هذا
اللون الطريف من أدب الفقهاء يُكوّن باباً من الشعر لم يطره
غيرهم من الأدباء . ويمكن أن نسميه شعر السَّيَر إن لم يندرج
في شعر القصص .

وبعد ذلك تبقى تفاريقُ وأشتاتٌ من أدب الفقهاء كالحديث
عن الحياة العلمية وما لها من جمال يفوق في نظرهم جمال
هذه الأشياء المادية التي ينقطع إليها غيرهم من الأدباء ويُفنون
أعمارهم فيها بغير فائدة ، وكان الحصومات الأدبية التي تقع
فيما بينهم فيتراشقون لأجلها السهام بطريقتهم الخاصة .
وكعرض الحقائق العلمية في صور أدبية ، والالغاز العنسية
وغير ذلك مما يعسر تتبعه .

بين شعر الفقهاء ونثرهم

وربما يلاحظ القارئ أننا أكثر ما نتحدث عن الشعر ، ومدلول الأدب أعم من أن يقتصرَ في الحديث عنه على الشعر دون إشارة إلى النثر . والواقع ان الباعث على كتابة هذا البحث هو النقد الذي يوجه إلى شعر الفقهاء خاصة دون نثرهم ، فإن النقد درجوا على التعبير بقولهم هذا شعر فقيه إذا وجدوا فيه مغمزاً من الناحية التي تناولها الجزنائي الذي بنينا بحثنا هذا على كلامه ، فالشعر إذن هو محطّ النظر من أدب الفقهاء . وأما النثر فإن لهم فيه يداً طولى قد تطفئ على ما للأدباء في ذلك ، وما زالت كتابات الغزالي والطرطوشي وابن خلدون والراغب الاصبهاني وأمثالهم من النماذج العالية التي تُحتذى في النثر العربي ، وبديهي أن ليس كل الفقهاء ممن برعوا في النثر وكانت لهم فيه هذه المكانة المرموقة ، وإنما الفرق ان النقاد لم يجدوا مثل هذا التفوق للفقهاء في الشعر فلاحظوا عليهم ضعف الملكة الشعرية ، وهم قلّما درسوا الآثار النثرية للفقهاء حتى يحكموا بتفوقها وان سكتوا عليها لما لم يجدوا فيها مطعناً .

ونرى أن الوقت قد حان لدراسة النثر العربي من جديد وتقديم نماذجه الحية التي طالما غفل عنها مؤرخو الآداب والنقاد ، من آثار العلماء الذين ذكرناهم وغيرهم

من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين والفقهاء والمتكلمين والصوفية
وعدم الاقتصار على آثار الكتاب بالمعنى الضيق كابن العميد
والحريري والقاضي الفاضل ولسان الدين ، فان تقدم المعرفة
وتطور الأدب قد برهنا على أن نثر أولئك الأعلام هو المسير
للطبيعة والموافق للذوق السليم .

ونحن اليوم على غيراره نطبع ، لا على ما كان متكلفاً من
كتابات هؤلاء الأدباء المتنوّقين .

أدب مستقل

ولا ينتمي هذا الأدب لطبقة من الطبقات ولا لعصر من
العصور ، لأن مؤرخي الأدب أهملوه فبقي حراً لا يتقيد
بحكم من أحكامهم في ذلك ، ولهذا يصح أن نرويه على
ترتيب السنين أو على الموضوعات .

والحق أننا إذا نظرنا إليه من زاوية التاريخ وجدنا أنه يرجع
إلى عصر السليّة وطبقة من يُحتجّ بهم من شعراء العربية ،
فإن ميلاده كان مقروناً مع ميلاد الاسلام ، ونحن إذا استثنينا
شعراء الصحابة المعروفين الذين غلبت عليهم صفة الشاعرية
كحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وأمثالهما ، كان من
بقي منهم ممن قال شعراً إما أن يكون غير فقيه ، فهو محدود

في المقلتين وأصحاب الأبيات من الشعراء ، واما أن يكون
فقيهاً فهو من الطلائع الأولى لهذا الصنف من الأدباء وهم
عدد كثير ، ناهيك بأن منهم أبا بكر وعمر وعلياً (رض) .

قال سعيد بن المسيّب كما في العقد الفريد : كان أبو بكر
شاعراً وعمر شاعراً وعليّ أشعر الثلاثة . وأما الأنصار فكادوا
يكونون كلهم شعراء . جاء في ترجمة أبي الدرداء (رض)
انه قيل له : ليس رجل من الأنصار إلّا وله شعر فلم لم
تقل أنت شعراً . قال وأنا قد قلت :

يُرِيدُ المرءُ أَنْ يُعْطَى مِنْهُ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يَقُولُ المرءُ فَأَنْدَتِي وَمَالِي وَتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

وأبو الدرداء من فقهاء الصحابة (رض) بل هو أحد الستة
الذين انتهى إليهم علم النبي (ص) .

تحقيق في قول عليّ للشعر

ونظن انه لا حاجة بنا الى رواية شيء من شعر الخلفاء
الثلاثة الذين ذكرناهم ولا من شعر غيرهم من الصحابة لشهرته
ولذكرة في تراجمهم . ولكن مسألة مهمة لها تعاق بالموضوع ،

لا نرى بأساً بتحقيقها هنا وهي ما شاع من عدم قول علي كرم
الله وجهه للشعر . غيرَ بيتين اثنين على ما جاء في القاموس
المحيط للمجد الفيروزبادي وهما قوله :

تِلْكُمْ قَرِيشٌ تَمْنَانِي لِيَتَّقِلْنِي
فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرَّوْا وَلَا ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمِّي لَهُمْ
بِذَاتٍ وَدَقِيقِينَ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

نقله عن المازني ، ونقله المرزباني في تاريخ النحاة عن
يونس ، وصوبه الزمخشري ، وهو غيرُ مُسلَّم . وما زلنا
نسمعه من علمائنا الذين يعودون فيُنشدون لِعليّ من الشعر
الشيء الكثير . وصاحبُ القاموس نفسه قد خالفه في مادة
(خيس) فأنشد لعلي شعراً يُنظرُ فيه .

وقد تعقب هذا القول اللغوي المحقق محمد بن الطيب
الشرقيّ الفاسي مُحشّي القاموس بقوله على ما عند الزبيدي
صاحب التاج :

« ولعل سند ذلك قوي لديهم وإلاّ فقد ورد عنه :
أنا الذي سمني أمي حيدره ... الأبيات .
ونقل عنه المصنف (يعني الفيروزبادي) في خيس شعراً .
وتواتر عنه : محمد النبيّ أخي وصهري ... الأبيات .

وغير ذلك مما كثر وشاع بحيث أن النفوس لا تطمئن إلى أنه لم يقل غير هذين البيتين .

ثم نقل كلمة سعيد بن المسيب التي سقناها آنفاً في شاعرية الخلفاء الثلاثة ولكنه نسبها إلى الشعبي وزاد قائلاً : « نقله الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة مسطح ابن أثاثة وذكر مثله جماعة . ونسب إليه من أشعار الحكم وغيرها شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن الطيب . وزاد عليه الزبيدي قائلاً : »

ويروى أنه رضي الله عنه قال يوم خيبر :

دُونَكهَا مُتْرَعَةٌ دِهَاقَا كَأْسًا زُعَاقًا مُزْجَتِ زُعَاقَا

ثم قال : « وقرأت في تاريخ حلب لابن العديم ما نصه : أخرج يعقوب بن شبة بن خلف بن سالم ، حدثنا وهب بن جرير عن أبي الخطاب محمد بن سواء عن أبي جعفر محمد ابن مروان أن علياً قال :

لِمَنْ رَايَةُ سَوْدَاءُ يَخْفَقُ ظِلُّهَا

إِذَا قِيلَ قَدَمُهَا حُضَيْنُ تَقْدَمَا

فَيُورِدُهَا فِي الصَّفِّ حَتَّى يَقِيلَهَا

حِيَاضَ الْمَنَايَا تَقْطُرُ السَّمَّ وَالْدَمَا

جزى الله قوماً قاتلوا في لقاءهم
لدى الموت قدماً ما أعزّ وأكرما
ربيعاً أعني ، إنهم أهلُ نجدة
وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرماً

وأخرج أيضاً بسنده إلى أبي عبدالله إبراهيم بن محمد بن
نِفْطَوَيْه والحسن بن محمد بن سعيد العسكري قال : ومما
يروى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لمن راية سوداء ...
الآيات . قال : وقال السّدّي كانت رايته حمراء بصفين
فتأمل ذلك .

انتهى كلام الزبيدي . وما نقله عن السّدّي لا يقدح في
نسبة الشعر لأن الرايات في صفين كانت كثيرة لكل قبيلة
راية . وقد جاء في العقد لابن عبد ربه « قال أبو عبيدة في
التاج : جمع علي بن أبي طالب رئاسة بكر كلها يوم صفين
لحصين بن المنذر بن الحرث بن وعلة وجعل (ألويتها)
تحت لوائه وكانت له راية سوداء يخفق ظلّها إذا أقبل فلم
يُغن أحد في صفين غناءه فقال فيه علي بن أبي طالب :

لمن راية سوداء يخفق ظلّها	إذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها في الصف حتى يُزيرها	حياض المنايا تقطر السم والدم
جزى الله عني والجزاءُ بكفه	ربيعاً خيراً ما أعفّ وأكرما

والبيت الأخير بهذا اللفظ من شواهد النحو وأصحاب

الشواهد ينسبونه لعلّي كذلك، وحصين روى هنا بالصّاد وهو
بالضاد كما سبق عن الزبيدي .

وفي العقد أشعار أخرى لعلّي كما في غيره من الكتب ، وقد
جُمِع كثير منها في ديوان مطبوع إلّا أنّه لا يصحّ نسبة
كل ما فيه إليه . فهذه الروايات التي ذكرناها فضلاً عن
التي تركناها مما عند الطبري وابن كثير وابن الأثير ونصر بن
مزاحم في كتابه عن وقعة صفين وغيرهم في تلك الأبيات
وغيرها ، مما لم يورد النافون قول الشعر عن عليّ غير ذينك
البيتين ، قليلاً منه ولا كثيراً ، تجعلنا لا نقبل قولهم ونرجّح
بالرواية قوله للشعر وإكثاره منه ، وقد تقرر في الأصول
أنّ المُثبت مقدم على النافي وإن من حفظ حجة على من لم
يحفظ والعلم لله .

• • •

وإذا تجاوزنا عهد الصحابة إلى من بعدهم من التابعين
والأئمة المجتهدين فإننا نجد بينهم الكثير من الفقهاء الذين
قالوا الشعر الجيد وبذّوا في بعض المعاني الفحول من الشعراء
بل اننا نجد من هؤلاء الفقهاء من لم يسع النقاد والمؤلفين في
الأدب إلّا أن يعترفوا بموهبتهم الشعرية ويعدوهم في جملة
المتفوقين .

عُرْوَة بن أَذِينَة

فهذا عروة بن أذينة شغل الناس بشعره الرقيق في الحب والغزل ، وكان كابن أبي ربيعة في تعلق النساء والمحبين بشعره ، إلا أنه لم يكن مثله في المجون والاستهتار ، بل كان على جانب من الصيانة والدين لا يرقى إليه الشك وهو محدود في التابعين ومن الفقهاء المحدثين ، روى عن ابن عمر وروى عنه مالك بن أنس وغيره ، ونجد شعره في الأغاني والموشح وديوان الحماسة وسائر أمهات الكتب الأدبية . فمن أبياته السائرة التي ذكرها له صاحب الحماسة قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملتها
خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها
بلباقة فادقها وأجلتها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي
ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة
شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وهذه الأبيات من عيون الشعر وأحسنه تعبيراً عن عاطفة الحب الدفين في القلب ، الذي يظهره هذا الاعجاب بجمال المحبوب ، وهذه المطاوعة لهواه ولو جرى على عكس المراد .

لأنه حب مهذب وإن كان راسخ الجذور ، فهل نقول انه يمثل مجتمع المدينة الراقي أو نفسية صاحبه القوية بالعلم والتقوى ؟

في نظرنا أنه صدر عنهما معاً ، فالبيئة بيئة نعيم وترف ألا ترى إلى وصف المحبوبة ونشأتها الباكورة في النعيم الذي صاغها بمنتهى اللبقة فأدق منها ما ينبغي أن يدق وأجلّ منها ما ينبغي أن يحلّ ؟ وصاحبنا ذو أدب رفيع فهو إذ يتحدث عما زعمته من ملاله لها يرّد ذلك بأقوى حجة في ألطف عبارة ، وهي أنهما خلّقا أحدهما هوى للآخر فلا يمكن أن يتسرب الملل إلى قلوبهما . وكذلك يقول إذا عرض له منها ما يوجب ريبة أو يوسوس بسلوة ، فما كان أكثرها لنا وأقلها لها هو الاعتذار عن التحية التي حرّمته منها ، وشفاعة الضمير أو رقابته هي الكفيل بطرد كل ما يساور فؤاده من وساوس السلو لو كان ممكناً . وبهذا التفكير الارستقراطي في الحب ، أن صح التعبير ، الذي يبرز ما كان عليه الرجل من تهذيب رفيع ، وما كانت عليه الحياة في المدينة من تفتح وازدهار ، ثم بالصياغة الجميلة التي أفرغ فيها ، سارت هذه الأبيات كل مسار وغُنّي فيها وما تزال حتى الآن تعد من غرر الأبيات في الشعر العاطفي وإن كان قائلها فقيهاً .

وأنشده المرزباني هذه الأبيات المطربة :

لَبِثُوا ثَلَاثَ مِئَةٍ بِمَنْزِلِ غَبْطَةٍ وَهُمْ عَلَى غَرَضٍ لِعَمْرُكَ مَا هُمْ
 مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارٍ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدُمُوا
 وَلَهُنَّ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ لُبَانَةٌ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ
 لَوْ كَانَ حَيًّا قَبْلَهُنَّ ظُعَانًا حَيَا الْحَطِيمُ وَجُوهُهُنَّ وَزَمْزَمُ
 وَكَأَنَّهُنَّ وَقَدْ حَسَرْنَ لَوْ اغْبَا بَيْضُ "بَأْكَنَافِ الْحَطِيمِ مُرْكَمُ"

ولئن أخذ عليه أبو السائب المخزومي فيها عدمَ ندمه على
 رحيلهنّ ، فإنه غفل عن أن الرجل ذو طبع مدني رقيق وقد
 اكتفى بهذا اللقاء الموقوت الذي بلغ فيه من آمال نفسه ما سيكون
 متعة له يتملى بها إلى لقاء آخر مأمول .

وحكى في العقد أن امرأة وقفت عليه وهو في مجلسه فقالت
 له أنت الرجل الصالح الذي تقول :

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحَبِّ فِي كَبْدِي
 عَمَدْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْمَاءِ أُبْتَرِدُ
 هَبْنِي بَرْدُ بَيْرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرِهِ
 فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَقَدُّ

لا والله ما قال هذا رجل صالح .

وعلق ابن عبد ربه على قولها بهذه العبارة القاسية : « وكذبت

عدوةُ الله ، عليها لعنة الله .. بل لم يكن مُرائياً ولكنه كان
مصدوراً فنفت . »

وهكذا دخل شعر ابن أذينة على عقائل النساء ، في خدورهن
وهيج منهن مكان من الهوى ، فانبرين له يؤنبه ، وفي تأنيهن
اعتراف بما لقين منه ولقي منهن . والصورة التي في هذين
البيتين جميلة حقاً ومُغرية بصدقها وبساطتها ، فلذلك أثارت
من صاحبة الرجل الصالح ما أثارت .

وابن أذينة هو صاحب هذين البيتين المشهورين :

لقد علمتُ وما الإسرافُ مِن خلقي
أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعِينِي تطلبُ به
ولو قعدتُ أتاني لا يُعَنِّي

ولهذين البيتين حكاية ، وهي أنه وفد على هشام بن عبد الملك
في رجال من أهل المدينة ، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم
فقضاها ثم التفت إلى عروة فقال له : أَلستَ القائل : لقد
علمت .. البيتين ؟ قال نعم : ما أراك إلا وقد سعتَ له .
قال سأُنظر في أمري يا أمير المؤمنين . وخرج فجعل وجهته
إلى المدينة . فبعث إليه هشام بألف دينار فوجده قد
غادر دمشق ، فأمر له بها في المدينة . فلما جاءه الرسول قال

له : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له : أنا كما قلت قد
سعت له فعييت في طلبه وقعدت عنه فأتاني لا يعني .

عُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الله بن عُبَيْة بن مسعود

وعُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة
بالمدينة الذين اتفقت الأمة على توثيقهم وجلالتهم ، هو أيضاً
ممن قال الشعر الحسن ولم يُدْفَع بسبب فقهه عن إجادة . وله
هذه الأبيات السائرة في الغزل وهي مما غُنِّيَ به :

كتمتَ الهوى حتى أضرتَ بك الكتمُ
ولامك أقوام ولومهم ظلُم
ونمَّ عليك الكاشحون وقبَلَ ذا
عليك الهوى قد نمَّ لو نفع النَمُ
فيا من نفس لا تموت فينقضي
عناها ولا تحيي حياة لها طعم
تجنبتَ إتيانَ الحبيب تأثماً
ألا إن هجران الحبيب هو الائم

والأبيات تعبر عن عاطفة حبّ عنيف ، جهّد الشاعر
جهده في كتمانها ، ولكنه كان أقوى من إرادته ، فظهرت
عليه أعراضه ، وافتضح أمره بين الناس ، فمن لائم لا
يعذر ، ومن كاشح مغري بالنميمة ظلماً وشماتة ، حتى

صار الشاعر يتمنى الموت ليستريح من العناء فإن حياته أصبحت عبثاً لا معنى له ، وطعماً لا يجد له مذاقاً . إلا أنه يراجع إذ تثور نفسه ويستبد به هواه فينبذ تلك الوسوس كلها ويصرخ من أعماقه : إلى الحبيب .. إلى منية النفس وقرّة العين وسلوة الفؤاد .. ان هجران الحبيب خوفاً من الوقوع في الائم هو عين الائم ..

وهذا من فقيه امام وتابعي جليل قد يستغربه القارىء ، بيد أنه إذا علم ما كان عليه مجتمع المدينة في الصدر الأول من حياة سمحة سهلة لم ير فيه غرابة . والقوم كانوا أكثر تفهماً لروح الاسلام منا اليوم فلم يكونوا يدعون التصون وهم يرتعون في المخالفات ولكنهم كانوا على رقة العاطفة وسلامة الذوق في منتهى العفة والصون ، والانسان مسؤول عما في ملكه وأما ما لا يملكه من ميل القلب فلا حرج عليه فيه .

ومما زاد في جمال هذه الأبيات وربما كان سبباً في اعفاء صاحبها من المسؤولية الأدبية ، أنها جاءت على أسلوب التجريد أي بصيغة الخطاب لا بصيغة التكلم ، فصلحت لأن يجد فيها كل محب مستهام تصويراً لمشاعره وتعبيراً عن أشواقه وذلك مما جعلها تفوز بالتركية من عامة الأدباء والنقاد وتذكر في أمهات الدواوين وكتب الأدب .

مالك بن أنس

والأئمة المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المتبعة فيهم
كذلك من قال الشعر ونظم القوافي ولم يشغله الاهتمام بتفريع
المسائل والفتوى في النوازل عن الاسهام بحظه في الأدب على
مستوى رفيع لا ينزل عن نتاج الطبقة العالية من فحول الشعراء
فمما روينا عن شيوخنا من نظم الامام مالك قوله يمدح القناعة :

هي القناعةُ لا أرضى بها بدلاً
فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن

وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها
هل فاز منها بغير اللحد والكفن

ومنه قوله في أدب السلوك :

وكنتم أحقَّ منه ولو تصاعد	إذا رفع الزمانُ عليك شخصاً
يُنيلك إن دنوت وإن تباعد	أنيله حقَّ رتبته تجده
تكن رجلاً عن السواى تقاعد	ولا تقل الذي تدريه فيه
ولكن للعروس الدهرُ ساعد	فكم في العُرسِ أبهى من عروُس

وهي حكمة عملية لا نظير لها في أدب السلوك ومعاشرة
الناس وتجربة حية ما تزال ممارستها تعطي أحسن النتائج في
مجالات الحياة اليومية . والفرق كبير بينها وبين قول القائل :

خبرتُ الرجال ومازجتُهُم فكل يميل إلى شهوته
فله در فتى عاقل يُدير الأمور على فطنته
يجازي الصديق باحسانه ويبقى العدو إلى مدته
ويلبس للدهر أثوابه ويرقص للقرْد في دولته

فهذه تُعلّم النفاق وتلك تُعلّم مُداراة النفس عن الهوى
المذموم . وهذا هو الحيط الرفيع الذي يفصل بين أدب العلماء
وأدب غيرهم .

ومما جربته من أثر هذه الحكمة أننا خرجنا يوماً لاستقبال
أحد الاخوان الوطنيين وكان قادماً من سفرة طويلة بصدد
الدعاية للقضية الوطنية فاحتشد الناس وجعلوا يهتفون باسمه
وأسماء الوطنيين الآخرين وكان ممكناً أن يقع لذلك رد فعل
عند بعض الحاضرين فقامت لأولئك الذين يهتفون : اننا اليوم
في عرس فلان ، الشخص القادم ، وفي العُرس لا يهتف إلا
باسم العروس ، فكفوا عن تلك المتافات المختلفة وحمّد
أثر ذلك التوجيه الذي لم يسيء إلى شعور أحد من أولئك الناس
الطيبّين النفوس .

وكتب إليّ صديقي الأديب السوري الكبير الدكتور زكي
محاسني وكان في كتابه ما جعلني أسليه بأبيات الامام هذه
عند جوابي له . فعاودني بكتاب آخر يقول فيه : « أخذت

اليوم رسالتك الكريمة وتلوّتها بهزة وشوق ، وجعلتها نبراسي
ومذهبي ، لما تضمّنت من جليل القول وكبير الموعظة والسداد ،
وقد حام في خاطري الشعر فرحت أقول فيك :

نحياتُ الحبيب وان تباعد	تحيُّك والفؤاد بها تصاعد
أيا كنتون والمكنونُ وجد	أراه على مدى بُعدٍ تزايد
وجدتك منحة الدنيا فدعني	أنل قرباك في حظ توافد
لأنتَ الشمس تشرق من غروب	على اشعاعها قلبي توارد
بنيت لقومك العالين مجداً	ومثلُك من لداعي المجد جاهد

ولعل ربة الشعر التي ألهمت من قال : فكم في العرس
البيت هي التي الهمتني .

وقصدت بإيراد هذه الفذلكة من كتاب الدكتور محاسني
بيان الأثر المحمود الذي كان لأبيات الامام مالك على رجل
من ذوي الثقافة العالية في عصرنا هذا ، مما يؤكد أنها ذات
قيمة عالية في أسواق الحكمة والأدب . واستغفر الله مما رويت
من مدح وإطراء فأني لست عند نفسي ولا عند الناس بهذه
المثابة ، إلاّ أن حسن نية الصديق جعله ينظر إلي هذه النظرة .

وقد كان من اللياقة وحسن الأدب أن أجيبه على أبياته
نظماً فكان هذا هو الجواب :

صديقٌ في مكانته قريب وإن كان المكانُ به تباعد
(زكيّ) النفس ذو خلق رضي فمِمّا قد تنازل قد تصاعد
(محاسنه) على الأيام تتلى فكائِنٌ مَن بها عُجْباً تواجد
بَنى فيها على أصل أصيل ولم يكُ عن مداركها تقاعد

وأردت بالبيت الأخير الإشارة إلى سلفه المذكور في مقدمة
نفع الطيب وتنويه المقرّي به . وعلى كل حال فهذا شعرٌ
لإمام الفقهاء مالك رحمه الله قد أوحى إلينا بمعانٍ كثيرة حتى
جاريناه في نهجه وأسلوبه وذلك منتهى نجاح التجربة الشعرية
عند قوم وهبوا أنفسهم للشعر ، فماذا يطالب من الفقيه أكثر
من ذلك ؟

الشافعي

ومحمد بن إدريس الشافعي الإمام المجتهد ، على فقهه
وعلمه كان شاعراً مفلحاً . وهو القائل كما تقدم :

ولولا الشعرُ بالعلماء يزري لكنتُ اليوم أشعرَ من لبيد

وشعره في الأخلاق والآداب والنصائح مما امتلأت به
الدواوين . ومنه هذه الأبيات :

إن الذي رُزِقَ اليسارَ ولم يصب
حمداً ولا أجراً لتغيرُ موفّق

والجدّ يدني كل شيء شاسع والجد يفتح كل باب مُغلق
وأحق خلق الله بالهم امرو ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه
بوئس اللبيب وطيبُ عيش الأحمق

واشتهر من قوله في الاعتزاز بالنفس :

عليّ ثيابٌ لو تباعُ جميعها
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس ببعضها
نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
ومما يحكى من أدبه أنه وقفتُ عليه امرأةٌ برُقة فتناوذا
فإذا فيها :

سَلُّوا المفتيَ المَكِّيَّ هل في تزاوُر
وضمّة محزون الفؤاد جُنّاحُ

فقرأها وكتب تحت البيت :

معاذَ إله الناس أن يُذهبَ التقى
تلاصقُ أكباد بهن جراحُ

وقد استراب أبو الطاهر بن زيادة بهذه الحكاية على كثرة اسنادها للشافعي وجعل البيت على ثبوتها من الشعر الموجه ، والمعنى : معاذ الله أن يفعل هذا تقي فيذهب بتقواه . على أنها رويت بوجه آخر من طريق الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وان السائل كان فتي هاشمياً يعرفه الامام وكان حديث البناء بأهله وهو في شهر رمضان فسأله يتعلق بالضم والتقييل في حالة الصوم من غير بطلان له .

وأصحاب الشافعي على عذر في أن ينفوا عنه هذا القول أو يؤولوه بما ذكر لأنه كان بمقام القدوة فيخشى أن يتعلق به المُجَّانُ والنُّتَّاكُ مع أنه ان صح انما كان نفحة من نفحات الأدب واريحيته . وللشافعي ديوان شعر معروف .

عبدالله بن المبارك

امام من أئمة العلم والدين روى عن مالك والثوري وتلك الطبقة وأدرك جاهاً عظيماً . وكان يقول الشعر ، وشعره من هذا الأدب الملتزم الذي يهدف إلى أسمى الغايات من اصلاح المُجتمع وانتقاد الساسة المتلاعبين بالدين والعلماء الذين تفسدهم

الاطماع فيصبحون محل استغلال هؤلاء الساسة . فمن ذلك قوله :

قد يفتح المرءُ حانوتاً لِمَتَجَرِّه
وقد فتحتَ لك الحانوت بالدين

بين الاساطين حانوتٌ بلا غلق
تبتاع بالدين أموالَ المساكين

صيرتَ دينك شاهيناً تصيدُ به
وليس يُفلح أصحابُ الشواهين

وكان يتجر ويقول لولا خمسة ما اتجرت : السفيانان
وفُضِّلَ وابن السماك وابن عُلَيَّة أي ليصلهم . فولي ابنُ
عليه القضاء فلم يأتَه ولم يصله . فأثنى إليه ابنُ عليّ فلم يرفع
رأسه إليه . ثم كتب إليه ابن المبارك يقول :

يا جاعِلَ العلم له بازياً	يصطاد أموالَ المساكين
احتلتَ للدنيا وزينتها	بحيلة تذهب بالدين
فصرتَ مجنوناً بها بعد ما	كنتَ دواء للمجانين
أين روايتُك في سردها	بترك أبواب السلاطين
أين روايتُك فيما مضى	عن ابن عوف وابن سيرين
ان قلت اكرهتُ فذا باطل	زلَ حمارُ الشيخ في الطين

فلما وقف اسماعيل بن عليّ على الآيات ذهب إلى الرشيد
ولم يزل به يستعفيه من القضاء حتى أعفاه .

ومغزى هذا الموقف من حفظ كرامة العلم وصيانة الدين
عن الشّبّه أظهر من أن ينه عليه .

وأنشد له ابنُ عبد البرّ في جامع بيان العلم :

رأيتُ الذنوبَ تَمِيتُ القلوبَ	ويورثُكُ الذلَّ	إدمانُها
وتركُ الذنوبَ حياةَ القلوبَ	وخيرُ	لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدين إلاّ الملوكُ	وأحبارُ سوءٍ	ورهبانُها
وباعُوا النفوسَ فلم يربحوا	ولم تغلُ في البيعِ	أثمانُها
لقد رتَعَ القومُ في جيفةَ	يَبِينُ لذيّ اللبِ	إنتانُها

والآياتُ الثلاثةُ الأخيرةُ منها عنقاءُ مُغربٍ في النقد
الاجتماعي والسياسي وهي مشتهرة بين دعاة الإصلاح الديني
وارِدة على لسانهم منذ قالها ابن المبارك وحقّ لها ذلك .

• • •

ولم أعرّج على ذكر القضاة أمثال شُرَيْحٍ ويحيى بن أكثم
وأحمد بن أبي دُوَادٍ ، فإنهم بحكم منصبهم الكبير ومدخلتهم
للخلفاء وتعلّق آمال الناس بهم ومدح الشعراء لهم وقيامهم

في المقامات المشهودة وتمكنهم من ناصية الكلام ، قد ارتفعوا عن مستوى الفقهاء الذين لا يُظن بهم الأدب ويُنتقد شعرهم بمجافاته لأساليب العرب .. على أن تتبع ذلك يطول فلنتقل إلى طبقة الفقهاء المتقدمين من أتباع المذاهب بعدما ذكرنا من شعر فقهاء التابعين والائمة المجتهدين . فمنهم :

أحمد بن المعدّل

من فقهاء المالكية الكبار ، ولم يكن لملك بالعراق أرفع منه ، كان يسمى الراهب لفقّهه ونُسكه وكان يعدل بأحمد ابن حنبل . وهو أخو عبد الصمد بن المعدل الشاعر المشهور . وكان يسكن مع أخيه في دار واحدة . وكان عبد الصمد منهما كماً في الشراب ، فكان أحمد يكر إلى صلاة الصبح وهو امام المسجد ، فيمر بأخيه وهو سكران فيحركه ويقول (أفأمنَ الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض) الآية . وتارة يقول (أفأمنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا) الآية . فيقول عبد الصمد ويرفع رأسه (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية .

ومن شعره ما رواه المبرد قال : رأيت أحمد بعرفات مُضحياً للشمس لا يستظل . فقلت ما هذا يا أبا الفضل ؟ فقال :

ضحيتُ لكيما أستظلّ بظله
إذا الظلّ أضحى في القيامة قالصا
فيا أسفي إن كان سعيك باطلاً

ويا حزنا إن كان أجرك ناقصا

قال في المدارك : وأنشد له الحضرمي :

أخو دنف رمته فأقصده	سنيامٌ من لحاظك لا تطيش
قواتلٌ لا قيداح سوى احرار	بهن ولا سوى اللحظات ريش
أصبن سواد مهجته فأضحى	سقيماً لا يموت ولا يعيش
كئيب إن تحمّل عنه جيش	من البلوى ألمّ به جيوش

وهذه الأبيات في رقتها وجزالتها لا تصدر إلا عن طبع مهذب وشعور عميق بالجمال ، وهو الجمال البشري المرموق المعشوق ، لا ما يرمز اليه الصوفية من جمال الحضرة العلية ، فإن هذه النزعة لم تكن ظهرت في ذلك الوقت . وقد تستغرب من صاحب البيتين آنفي الذكر ، ولكن الأمر هو على ما يعهد في أصحاب النفوس ذات الحساسية البليغة ، من شدة التأثر بالمواقف العاطفية والمشاهد الوجدانية فشاعرنا الفقيه لما كان بعرفات متعرضاً لنفحاتها مستغرقاً في روحانية مشاعرهما لم يملك إلا أن يكون كما رآه المبرد ويقول ما قاله من ذلك الشعر المطبوع بطابع الزهد والتقوى . وفقهنا الشاعر امام العيون

التي في طرفها حور لم يستطع أن يُخفي انفعاله بسحرها
ووقعه في أسرها ، فقال تلك الأبيات الرائقة المعجبة التي
لا تُؤتى من ضعف في الشكل ولا في المضمون . انها طبيعة
واحدة فما يصدر عنها وان اختلف في صورته لا يختلف
في مادته ، والشعر ليس خاصاً بالكاس والطاس وما كان من
ذلك بسبيل ، فرب أبيات في المطالب العالية للنفس أقرب إلى
الشاعرية من كثير من الشعر الذي يقوله أصحابه في الهوى
والشباب مما يظن أنه مادة الشعر الأولى . على أنه لا بد من
تدبير النفس بين نزعاتها المختلفة والتنقل بها من حال إلى حال :

ولله مني جانب لا أضيعه ولله مني والبطالة جانب

وقال المبرد : ذكر الدولابي في كتاب نزهة الأسرار أن
ابن المعتز قال له أهله حين ورد القاضي يحيى بن أكثم البصرة :
لو أتيت يحيى فسألته ، وقد أصابهم ضر ، فلم يجبههم . ثم
قال هذين البيتين :

تُكَلِّفني إِذْلالَ نفسي لِعِزِّها
وهان عليها أن أذلَّ وتُكرِّما
تقول سل المعروف يحيى بن أكثم
فقلتُ سليه ربَّ يحيى بن أكثما

هكذا جعل القاضي عياض في المدارك البيتين ؛ والحكاية ؛

لأحمد بن المعذل وجعلهما ابن خلكان في الوفيات لأخيه
عبد الصمد وهما بحال صاحبنا أحمد أشبه .

القاضي عبد الوهاب

ومنهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر ، من أعلام
مذهب مالك من أهل بغداد ، ونبتَ به على عادة البلاد بدوي
فضلها كما قال ابن بسام في الذخيرة فغادرها إلى مصر وشيَّعه
جمعٌ من أهلها وطلبة العلم فيها متأسفين لرحيله عنها فقال
لهم لو وجدت بين ظهرانكم رغيفين في كل يوم ما عدلت
عنكم فأطرقوا ولم يحبروا جواباً . وفي ذلك يقول :

وَحَقُّ لِهَامِنِي سَلام مُضَاعَفٍ	سَلام على بَغداد في كل موطن
وَإِنِّي بِشِطَّتِي جَانِبِيهَا لَعَارِفٍ	فوالله ما فارقَها عن قَلِيٍّ لَهَا
وَلَمْ تَكُنِ الْأَرْزَاقُ فِيهَا تَسَاعِفٍ	وَلَكِنَّا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِأَسْرَهَا
وَأَخْلَاقُهُ تَنَأَى بِهِ وَتَخَالَفٍ	وَكَانَتْ كَخَلٍّ كُنْتُ أَرْجُو دَنَوَهُ

وقال فيها لما ضاقت به الحال :

بَغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَرْقَتِهَا
كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقٍ

قالوا واجتاز أثناء رحيله إلى مصر بمَعْرَةِ النعمان وبها
يومئذ أبو العلاء المعري فأضافه وقال فيه من أبيات :

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلاً
وينشر الملك الضليل ان شعرا

والملك الضليل هو امرؤ القيس . وكفى بها شهادة لشاعرية
هذا الفقيه من أبي العلاء فيلسوف الشعراء . وطاب له المقام
بمصر ورغد عيشه ولكنه ما لبث أن اعتلّ ومات . وفي مرض
موته قال الكلمة المأثورة : « لما عِشْنَا مُتْنَا » وكانت وفاته
عام ٤٢٢ .

ومن رقيق شعره في الغزل :

ونائمةٍ قبلْتُها فتنبت
فقلت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها اني فديتك غاصب
وما حكموا في غاصبٍ بسوى الرد
خذيها وكُفّي عن أثيم ظُلامةٍ
وان أنتِ لم تَرْضَيْ فأنفأ على العد

فقلت قصاص يشهد العقل انه
على كَبِدِ الجاني أَلَدَ من الشَّهَد
فباتت يميني وهي هِمَيَانُ خضرها
وباتت يساري وهي واسطةُ العقد
فقلت ألم نُخْبِرَ بِأَنكَ زاهد
فقلت بلى . ما زلتُ أزهدُ في الزهد

ونشير إلى استغلال القاضي عبد الوهاب لمعلوماته الفقهية
وتضمينها في هذه القطعة الشعرية بما زادها طرافة ولم يبعد
بها عن صناعة الشعر ، كما ألمعنا لذلك فيما مضى ، ونظرنا
له بأمثلة من شعر المتنبي وغيره . والمسألة هنا تتعلق بالغصب
وحكمه أن الغاصب إذا ردَّ الشيء بحاله فلا تبعه عليه .
وذلك ما تضمنته الأبيات المذكورة مع غاية التفنن .

وللقاضي عبد الوهاب أبيات في نقد المجتمع لم تزل على
لسان كل واعظ ومصلح اجتماعي وهي قوله :

مَنْ تَصِلُ العِطَاشُ إلى ارتواء
إذا استقت البحارُ من الرّكَايا
ومَنْ يَثْنِي الأصاغر عن مُراد
وقد جلس الأكابر في الزوايا

وان ترفّع الوُضعاء يوماً
على الرفّعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأسافل والأعالي
فقد طابت منادمة المنايا

منصور الفقيه

ومنهم منصور بن اسمعيل عُرِفَ بالفقيه وهو من فقهاء
الشافعية ، من شعره في مدح علم الفقه :

عاب التفقه قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر

ما ضرَّ شمس الضحى في الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

قال ابن خلكان : ومن هنا أخذ أبو العلاء المعري قوله
في قصيدته المشهورة :

والنجمُ تستصغر الأبصارُ رؤيته
والذنبُ للعين لا للنجم في الصغر

فهذا فقيه شاعر يقتبس منه أحد فحول الشعراء ولا يقول

في شعره مزريراً عليه أنه شعر فقيه .

وكان منصور ينحو في شعره منحى أخلاقياً وهو القائل
في ذمّ الكذب :

لي حيلةٌ فيمن ينـ مّ وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

ومن شعره في تزييف ادعاءات المنجمين :

ليس للنجم إلى ضر ولا نفع سبيل
إنما النجم على الأو قات والسّمّت دليل

وله أيضاً :

إذا رأيتَ امرأً في حالٍ عِشرته
بادي الصداقة ما في وده دَخَل

فلا تَمَنَّ له حالاً يُسرّ به
فإنه بانتقال الحال يتقل

وكان منصور كفيفاً . وله تأليف في الفقه . وتوفي سنة

٣٠٦ بمصر .

الخطابي

أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البُستي
عرف بالنسبة إلى جده الفقيه المحدث الأديب صاحب التصانيف
البديعة منها غريب الحديث ومعالم السنن وكان شافعي المذهب ،
من شعره هذان البيتان المشهوران :

وما غربة الانسان في شُقة النوى
ولكنها والله في عدم الشكل
وأني غريبٌ بين بُستٍ وأهلها
وإنَّ كانَ فيها أسرتي وبها أهلي
وله أيضاً :

فسامح ولا تستوف حَقَّك كله
وابتق فلم يستقص قط كريم
ولا تغلُ في شيءٍ من الأمرِ واقتصدْ
كِلَا طَرَفِي قصِدِ الامور ذميم

وليس أدلَّ على شاعرية المرء من أن يسير كلامه بين الناس
مسير المثل ويتقبلوه ويستشهدوا به في مثل المناسبة التي قبل
فيها كالبيت الأول والثاني من هذين النموذجين من شعره ،

وكلاهما مما ينبىء عن عارضة قوية ولا يستطيع ناقد أن
يلزمهما بعيب في لأن قائلهما فقيه .

وله كذلك من هذا القبيل وارتكب فيه الجناس :

ما دُمتَ حياً فدَارِ الناسَ كلَّهمُ
فإنمّا أنتَ في دارِ المُداراةِ
مَنْ يَدْرِ دَارِي وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سَوْفَ يُرَى
عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيمًا لِلندَامَاتِ

توفي الخطابي ببغداد سنة ٣٨٦ .

المُعافى بن زكرياء

كان قاضياً ببغداد وكان على مذهب الامام ابن جرير
الطبري ، ولذلك يُقال له الجَرِيرِي ، روى عن جماعة من
الأئمة منهم ، أبو القاسم البَغَوِي وعنه القاضي أبو الطيب
الطبري وغيره ، وكان مشاركاً في العلوم حتى كان أبو محمد
الباجي يقول إذا حضر أبو الفرج وهي كنيته فقد حضرت
العلوم كلها . وكان ثقة مأموناً في روايته وله شعر حسن منه
هذه الأبيات السائرة في ذمّ الحسد :

ألا قُلْ لِمَنْ ظَلَّ لِي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب؟

أسأتَ على الله في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسدَّ عليك وجوهَ الطلب

وله كتاب المجلس الأنيس وتوفي بالنهروان سنة ٣٩٠ .

محمد بن داود الظاهري

يكنى أبا بكر ، وهو ولد الامام صاحب مذهب الظاهر .
وكان فقيهاً عالماً متمكناً من مادته مناظراً عن مذهب أبيه ،
صنّف في الانتصار له وفي أبواب من الفقه والأحكام تصانيف
جليلة . ولما توفي والده وجلس في حلقة استصغره الناس
فسأله أحدهم عن حد السكر ومتى يكون الإنسان سكران ،
فقال إذا عَزَبَتْ عنه الهموم وباح بسرّه المكتوم فاستُحْسِنَ
ذلك منه وعرف موضعه من العلم .

وصنّف في عنفوان شبابه كتابه الذي سماه الزّهرة وهو
مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائق . وقسمه
إلى مائة باب ضمّن كل باب مائة بيت ، يذكر في خمسين
منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، ويذكر
في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية . فهو من أعظم الكتب
التي ألّفت في الحب بالعربية وأقدمها ، ويحتوي بهذا الاعتبار
على ١٠,٠٠٠ بيت . وقد نشر منه النصف الأول باعتناء
المستشرق الدكتور نيكل منذ أكثر من ثلاثين سنة . ولعله

هو الذي فتح الباب لابن حزم في تأليفه لكتاب طوق الحمامة
في الموضوع ، لا سيما وابن حزم كما هو معلوم على مذهب
داود الظاهري والد مترجمنا ومن أكبر أئمتة ..

ومن شعر محمد بن داود في الحب والغزل :

أنزّه في روض المحاسن مقلتي
وأمنع نفسي أن تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لوّ انه
يُصبّ على الصخر الأصم تهتما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري
فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فما أن أرى حباً صحيحاً مسلما

وحكى ابن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد بن داود فجاءه
رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلاً وظن
تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردّها إلى
صاحبها . فنظرنا فإذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن
الرّومي الشاعر المشهور وإذا في الرقعة :

يا ابنَ داود يا فقيهَ العراق أفتينا في قوادل الأحداق
هل عليهن في الجراح قصاص أم مباح لها دَمُ العشاق

وإذا الجواب قوله :

كيف يُفتيكم قتل صريع بسهام الفراق والاشتياق
وقتل التلاق أحسن حالا عند داود من قتل الفراق

فالفقيه الذي يُساجِلُ ابن الرومي الشاعر المكثّر المبدع
لا يمكن أن يُقدّح في شاعريته أو يُنازع في صنعة الشعر .
بل ان الفقيه الذي كان أول من وضع مؤلفاً شعرياً خاصاً
بالحب وشؤونه حري أن يكون حجة على كل من ينكر الشعر
والآدب والفن على الفقهاء .

ونخلص لذكر فقهاء المغرب والأندلس ، ونبدأ للمناسبة
الآنفة الذكر بأشهرهم اسماً وأكبرهم علماً وهو أبو محمد
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي ، امام أهل الظاهر
بعد مؤسس هذا المذهب داود الظاهري المشهور .

ابن حزم

قال صاعد الأندلسي في حقه : « كان أبو محمد أجمع
أهل الأندلس قاطبة لعاوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع
توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة
بالسير والأخبار ، وأخبرني ابنه أبو رافع الفضل بن علي أنه
اجتمع عنده بخط أبيه من تاليفه نحو أربعمئة مجلد ، تشمل

على قريب من ثمانين ألف ورقة» (١) ومن أشهر كتبه المُحَلَّى أبان فيه عن علم غزير وتعمق في فهم أحكام الشرع وأدلتها من الكتاب والسنة ، وهو مطبوع في أحد عشر جزءاً . وله أيضاً كتاب الإحكام في أصول الأحكام نفيس جداً . وهو مطبوع أيضاً . ومن مؤلفاته المشهورة في تاريخ الأديان والعقائد كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل وهو معتمد في هذا الباب .

أما مقامه في الأدب والشعر ، وهو موضوع بحثنا هذا ، فقد قال فيه الحُمَيْدِي صاحب جِذْوَةِ الْمُقْتَبِسِ : « وكان له في الآداب والشعر نفَسٌ واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير . وقد جمعناه على حروف المعجم » ومما أنشد له من شعره :

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكنَّ للعيان لطيفُ معنى له سأل المعانيهَ الكليم

ولا يخفى ما في هذين البيتين من دعم الشعور العاطفي بالمعنى الديني ، المستمد من قصة موسى عليه السلام وقوله في مناجاة الحق سبحانه وتعالى : (رب أرني أنظر إليك) والتعليل لهذا الطلب الجريء بما لا يتنافى مع قوة الإيمان ولا يخامرهُ أدنى شك ، ولذلك كان لهذين البيتين عند العلماء

(١) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٩ طبع مدريد . وفيه بعض مخالفة لما في طبقات الامم لصاعد

والمتصوفة قيمة كبيرة ، وصدى لا يزال يتردد في الكتب
والمجالس كلما سنحت المناسبة للخوض في هذا الموضوع .
ولا تقلّ قيمتهما عند الأدباء عن قيمتهما عند العلماء ، لأنهما
من حيث السبك والصياغة لا غبار عليهما ، وأما المعنى فإنه
فريد لا مثيل له ، غاية الأمر أن أنظار العلماء والأدباء
تلاقت عندهما لما تضمناه من تعبير بارع عن مقصد كل
من الطرفين .

ونظيرهما في استيحاء النصوص الدينية قولُ أبي تمام في
سينيته المشهورة في مدح المعتصم :

لا تُنكروا ضَرْبِي له مَنْ دُونَهُ
مَثَلًا شَرُودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأَقْلَ لنوره
مَثَلًا مِّنَ المِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ

ومع تواردِ الفقيه والشاعر الكبيرين على الاستقاء من معين
الدين في أبياتهما هذه ، مما يؤكد أن ذلك لا يتعارض وأصالة
الشاعرية ، فإن الانصاف يقتضينا أن نقول أن بيتي ابن حزم
أرقّ معنى وألطف مساقاً ، وهما فوق ذلك أكثر سيرورة
من بيتي أبي تمام .

ومن شعر ابن حزم قوله وضمّنه الإشارة إلى مذهبه :

وذي عذَل فيمن سباني حسنه
يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن أجل وجهه لاح لم تر غيره
ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت في اللوم فاتئد
فعندي ردّ لو أشاء طویل
ألم تر أني ظاهري وأناني
على ما بدا حتى يقوم دليل

وما أحسن هذا القول ، وألطف الإشارة هنا إلى المذهب ،
لا سيما إذا علمنا أن للأبيات حكاية ذكرها ابن حزم نفسه
في كتابه طوق الحمامة ، وأن المُحاورَةَ فيها كانت مع الحافظ
أبي عُمَرَ بن عبد البرِّ وهو من أئمة مذهب مالك فَمِنْ
البراعةِ الاحتجاجُ في هذا المقام الأدبي بالمذهب الفقهي الذي
يأخذ به الشاعر ، والمُخَالِفُ كان من غزارة العلم وسعة
الأفق بحيث يتقبل هذا الاحتجاج ويُمِرُّه على أنه من اللطائف
الأدبية التي لا تُمَحَكَّة فيها . وهكذا كان القوم على إمامتهم
في العلم والدين يتعاطون كؤوس الأدب ممزوجة بالنكت
البارعة ، والتلميحات اللطيفة ولا يرون في ذلك حرجاً ،
ولا يستطيع أحد أن يلزمهم بسوء .

وألف ابنُ حزمُ كتاب طوق الحمامة في الحب وصفاته ،
ومعانيه وفلسفته ، والمحبين وما يعرض لهم وأحوالهم وأخبارهم
وهو وإن قال ان تأليفه له كان باقتراح أحد أصدقائه ، فإننا
نرى أنه ربما تشجع على ذلك بما علم من تأليف ولدِ إمامه
لكتاب الزهرة في الموضوع على ما مرّ ذكره . وأياً كان الأمر ،
فإن طوق الحمامة يختلف عن كتاب الزهرة اختلافاً كبيراً .
انه مليء بذكر تجارب ابن حزم نفسه في ميادين الحب والغرام ،
ومليء كذلك بأشعار ابن حزم التي نظمها في الموضوع ،
بل ليس فيه شعر لغيره ، وذلك ما جعله تحفةً أدبية نادرة
المثال ، وقصة غرامية متسلسلة الأحداث والوقائع ، تغري
قارئها بالانكباب عليها ، خصوصاً وهو يعلم أن بطلها علمٌ
من أعلام الفقه والدين وعبقريّ من عباقرة الفكر والفلسفة ،
وكان في وقت ما وزيراً وهو ابن وزير ، فقد توفرت كل
الأسباب لجعل هذا الكتاب قطعة فنية خالدة . وذلك من
أعظم الأدلة على أنّ للفقهاء جَولات موفقة في ميادين الأدب
والشعر فانت كثيراً من الشعراء والأدباء .

ومما جاء في طوق الحمامة من شعره في الحب الطاهر قوله :

يلومُ رجالٌ فيكٍ لم يعرفوا الهوى
وسَيَّانٌ عندي فيكٍ لاحٍ وساكتُ
يقولون جانبِ التصاؤُنْ جملة
وأنت عليهم بالشرِعة قانِتُ

فقلت لهم هذا الرياءُ بينه
صُراحاً وزيٍّ للمرائين ماقيت
منى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعهُ في محكم الذكر ثابت
إذا لم أواقع مَحْرَماً أتقي به
مجيئي يومَ البعث والوجهُ باهتُ
فلستُ أبالي في الهوى قولَ لائم
سواءٌ لعمري جاهر أو مُخافيت
وهل يلزم الانسانَ إلا اختياره
وهل يخبايا اللفظ يؤخذ صاميت

وهو احتجاج قوي في الشعر كاحتجاجه في مسائل الفقه
وخلاف الأئمة ، مما يدل على عارضته القوية وملكته الراسخة
ومنه قوله في مليحة شقراء :

يَعْيِبُونَهَا عِنْدِي بِشُقْرَةٍ شَعْرِهَا
فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يعييون لونَ النور والتبر ضلّةً
لرأي جهول في الغواية متمدّ
وهل عابَ لونَ الرجس الغضّ عائب
ولون النجوم الزاهراتِ على البُعدِ

وأبعدُ خلق الله من كل حكمة
مفضل جرم فاحِـم اللون مُسْوَدّ

به وَصِفَتْ ألوانُ أهل جهنم
ولِبِسَةٌ بأكِ مُشْكِلِ الأهلِ مُحْتَدّ

ومُذْ لاحت الراياتُ سوداً تيقنت
نفوسُ الوري أن لا سبيل إلى الرشـد

فهذه الأبيات تنبئ عن ذوق مدني مهذب ، كما تنبئ
عن شاعرية بليغة لا يرقى إليها نقد من جهة المعنى ولا من
جهة اللفظ . وما أملح قوله : « فقلت لم هذا الذي زانها
عندي » والغريب أن ابن حزم يذكر في الفصل الذي أورد
فيه هذه الأبيات أن ذلك أي حبه للشقرة كان طبيعة له وميلاً
غريزياً فيه ، فهو يعبر عن شعور صادق ، وحب راسخ
وليس كلامه صنعة وتفنتاً في القول كما قد يلوح . وأغرب
من هذا هو البيت الأخير في القطعة ، أترأه نزعة سياسية
مرّوانية لم يغفل ابن حزم الا فصاح عنها وقد واثته المناسبة
في هذه الأبيات العاطفية ؟

لعلنا قد مددنا النفس أكثر من اللازم في الحديث عن أدب
ابن حزم ، ولكنه يستحق ذلك ، وما يمنعنا من الاطالة إلا
ضيق المقام ومراعاة المناسبة لما تحدثنا به عن غيره . وكانت
وفاته رحمه الله سنة ٤٥٦ .

أبو الوليد الباجي

هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي نسبة إلى باجة الأندلس ، لا باجة إفريقية . كان قرّيع ابن حزم في الفقه والعلم ، وكان على مذهب مالك ، وهو الذي تصدى لابن حزم بعدما قصر فقهاء الأندلس عن مجادلته فناظره ونقض كثيراً من حججه . وقال عنه القاضي أبو علي بن سُكْرَة : « ما رأيت مثله في سَمْتِه وهيبته وتوقير مجلسه وهو أحد أئمة المسلمين وناهيك بأنه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر وأبو بكر الخطيب . ألف أبو الوليد كتاب الاستيفاء في شرح الموطأ ، كتاب حفيل كثير العلم لا يدرك ما فيه إلا من بلغ درجة مؤلفه في العلم قاله ابن فرحون في الديباج . ثم اختصره في كتاب سماه المُنتقى ، وهو مطبوع في سبعة مجلدات . وله غيرهما من الكتب القيمة النافعة . ومن شعره :

أَسْرَوْا عَلَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ سُرَاهُمْ
فَنَمَّتْ عَلَيْهِمْ فِي الشَّمَالِ شَمَائِلُ

مَتَى نَزَلُوا ثَاوِينَ بِالْحَيْفِ مِنْ مَنِي
بَدَتْ لِلْهُوَى بِالْمَازِمِينَ مَخَايِلُ

فَلَهُ مَا ضَمَّتْ مِنِّي وَشَعَابُهَا
وَمَا ضَمِنْتَ تِلْكَ الرَّبَا وَالْمَنَازِلُ

ولما التَقَيْنَا للجِمارِ وأبرزتْ
أَكْفَ لتَقِيلَ الحصى وأناميلُ

أشارت إلينا بالغرام محاجر
وباحت به منا جُسوم نواحل

وهي أبيات ذات نفَس أعرابيٍّ تعبر عن حُبِّ دفين ،
وان دارت الناس عنه بالحديث عن الحجاز والمُشاعر المشهودة
فيه . وفيها مع ذلك صنعة بديعية لطيفة إلا أنها تكاد تكون
من وحي الطبع لا تَعْمَلُ فيها ، فاجتمع لها بذلك حسن
السبك وبلاغة المعنى ، وماذا يُطلَب من الشاعر الموهوب
أكثر من ذلك ؟

ومما اشتهر من شعر الباجي قوله :

مضى زمنُ المكارم والكرام سقاه الله من صَوْب الغمام
وكان البِرَّ فعلاً دون نُطق فصار اليوم نُطقاً بالكلام

وذيله بعضُ الفقهاء أيضاً لما استشرى الفساد بقوله :

وزال النطقُ حتى لستَ تلقَى فتى يسخو برَدٍ للسلام

ثم ذيله فقيه آخر وقد طمَّ الوادي على القرِيِّ فقال :

وزاد الأمرُ حتى ليس الا سَخِيٌّ بالاذى او بالسلام

ولا يجد الناقد الأدبي ما يأخذ على هذه الأبيات ، وكلها لفقهاء شعراء ، بل انه لو أنصف لجعلها في مستوى القمة من الصناعة الشعرية وخصوصاً بيتي صاحبنا أبي الوليد الباجي ، ولذلك جرت على ألسنة العلماء والأدباء معاً ، وكان مشائخنا رحمهم الله كثيراً ما يرددونها في المقامات التي تستدعي إنشاد مثلها .

وللباجي أيضاً هذان البيتان المشتهران في الزهد والحكمة :

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقينا بأن جميع حياتي كساعه
فليمُ لا أكونُ ضنيناً بها وأصْرِفُها في صلاح وطاقه

أبو بكر بن العربي

هو الامام القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الاشبيلي . حلاه ابن بَشْكُوَال في كتابه الصلة بقوله : « الحافظ المستبصر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها » أخذ ببلده ورحل إلى المشرق فلقني أبا حامد الغزالي وأبا بكر الشاشي وغيرهما وعاد بعلم غزير . وكان فصيحاً أديباً شاعراً كثير الخبر مليح المجلس . وله تأليف كثيرة منها أحكام القرآن في مجلدين مطبوع ، وهو عظيم الفائدة ومنها عارضةُ الأخوَذِي في شرح صحيح الترمذي مطبوع أيضاً وكتاب العواصم من القواصم مطبوع وهو دليل على بُعد

غوره وتفننه في علوم الفقه والكلام والتصوف . ومن شعره
المشهور قوله وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين . وكان
الأمير صغيراً فهزّ عليه رمحاً كان في يده مُداعباً له :

هزّ عليّ الرمح ظبي مهفهف لعُوب بألباب البرية عابثُ
ولو كان رمحاً واحداً لاتّقيته ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

وهما بيتان سائران يجريان كثيراً على ألسنة الأدباء في
مجال الاعتذار وعند غلبة الحوادث . قال المقري في نفح
الطيب : « وقد اختلف حذاق الأدباء في قوله : (ولكنه
رمح وثانٍ وثالث) ما هو الثاني والثالث ؟ ف قيل القد واللحظ ،
وقيل غير ذلك » .

وله وهو معنى بديع :

أتني توئبني بالبكاء فأهلاً بها وبتأنيها
تقول وفي نفسها حسرةً أتبكي بعينٍ تراني بها
فقلت إذا استحسنّت غيركم أمرتُ جفوني بتعذيبها

قال في النفح : ومن شعر ابن العربي مما نسبته إليه الشيخ
أبو حيان قوله :

ليت شعري هل دروا أيّ قلب ملكوا
وفؤادي لو درى أيّ شغب سلکوا
أتراهم سلّموا أم تراهم هلکوا

وهي أبيات ذاتُ نفَس صوفي أكسبها رقة وطلاوة ،
ولا يستطيع ناقد أن يلمزها بأنها شعر فقيه ، وهو يعني أنها
ليست بذاك من حيث الصنعة البيانية .

توفي ابن العربي رحمه الله سنة ٥٤٣ هـ وقبره بفاس معروف .

القاضي عياض

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ،
امام وقته في الفقه والحديث وعلومهما والنحو واللغة وكلام
العرب وأيامهم وأنسابهم . وصفه ابن الأبار فقال : « كان
جمال العصر ومفخر الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الافادة ،
وإذا عُدَّت رجالات المغرب فضلاً عن الأندلس حسب
فيهم صدرأ » وقد ألف فيه العلامة المقري كتابه أزهار
الرياض في أربعة مجلدات وهو معروف ، طبع منه ثلاثة
مجلدات وللقاضي عياض تصانيف سارت بها الركبان منها
كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى أبداع فيه كل الإبداع
واكتسب شهرة في العالم الاسلامي كاد يصير بها من الكتب
المقدسة نظراً لشرف موضوعه . ومنها كتاب مشارق الأنوار
في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وضبط
الألفاظ والتنبيه على الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء
الرجال وهو كتاب فريد لا نظير له . ومنها كتاب ترتيب
المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الامام مالك

ويعرف عادة بالمدارك ، وغير هذه من مؤلفاته المحررة
العظيمة الفائدة في الفقه والحديث وفنونهما وفي التاريخ
والأدب . وكانت له ملكة قوية في الانشاء وقريحة سيالة في
الشعر ومن قوله في خامات زرع بينها شقائق النعمان
هبت عليها رياح :

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وهو بديع . والحامة القصبة الرطبة من الزرع .
وله في وداع قرطبة :

أقول وقد جدّ ارتحالي وغرّدت
حدائي وزممت للفراق ركائي
وقد غمّصت من كثرة الدمع مقلتي
وصارت هواء من فوادي ترائي
ولم تبق إلا وقفة يستحثها
وداعي للأحباب لا للحبائب
رعى الله جيراناً بقرطبة العلا
وسقى ربّاه بالعهد السواكب
وحياً زماناً بينهم قد الفتّه
طليق المحيا مستلان الجوانب

أخواننا بالله فيها تذكروا
معاهد جارٍ أو مودة صاحب

غدوت بهم من برهم واحتفائهم
كأني في أهلي وبين أقاربي

ولست بحاجة إلى التنبيه على ما في هذه الأبيات من دقة الوصف لحركة السفر ، وشدة اللوعة لفراق الأحبة ، وهذا الاستدراك الجميل والحذر في قوله (للاحباب لا للحبائب) خشية أن يفهم ما لا يليق بكرامته العلمية ، وهو في دار الغربة ، مما يدل أعظم الدلالة على حسن تصرف الشاعر وتملكه لخاصية التعبير عما في ضميره وأدائه للمعنى المراد بكل سهولة وبكل براعة أيضاً . وتلك هي الغاية التي يتطاع إليها فحول الشعراء من غير أصحابنا الفقهاء . وقد توفي القاضي عياض سنة ٥٤٤ هـ ودفن بمراكش وقبره بها معروف .

فهؤلاء أربعة فقهاء من المغرب والأندلس كلهم قالوا الشعر الجيد الذي لا يقصر عن شعر أي شاعر مجيد غير فقيه سواء في الشكل أو المضمون ، وإذا أضفنا إليهم أبا الفضل بن النحوي وهو الذي بُنيَ هذا البحث على شعره ، وقد قدمنا نماذج منه ، كانوا خمسة . ونحن انما اقتصرنا على هذا العدد القليل رغبة في الاختصار ومناسبة العدد الذي ذكرناه ، من فقهاء المشرق الشعراء ، وإلا فهم أكثر من

أن يُحصيَهم بحث مُقتَضِب مثل هذا .

طبقة أخرى من العلماء

قدّمنا في طالعَة هذا البحث ما يُفيد أنّ العلماء كلهم سواء لدى النّقَاد في هذا الشأن . وأن هؤلاء لا يَخْصُون الفقهاء بضُغف مَلَكة الشعر ، بل يُعمِّمون حكمهم على العلماء من أي طبقة كانوا ، نُحاة أو أطباء أو فلاسفة أو غيرهم ، وإنما يُعبّرون بالفقهاء تغليباً لجانب الفقه على غيره من العلوم ، إذ كان أكثر العلماء من المُشاركين في علم الفقه ، وكانت صفةُ الفقيه تُطلق على العالم من أي صنف كان ، وفي المغرب والأندلس كانت تُعتَبَرُ صفةً تشرّيف ، فتطلق على كبار رجال الدولة من وزّراء وحُكّام وغيرهم .. ولهذا فنحن نرى من المناسب قبل أن نُلِمّ بموضوعات أدب الفقهاء ، ذكرَ طبقة أخرى من العلماء غير الفقهاء الذين قالوا الشعر وأجادوا فيه ، لأن من ذكرناهم لحد الآن إنما يمثلون الفقهاء الأقحاح المختصين بالدراسات الفقهية والعلوم الإسلامية في دائرتها الواسعة .

ابنُ دُرَيْد

فمن علماء العربية العالم اللغوي الشهير أبو بكر بن دُرَيْد صاحبُ كتاب الجمهرة في اللغة ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب

الملاحن وغيرها . قال الانباري في نزهة الألباء : « كان من
أكابر علماء العربية مقدماً في اللغة وأنساب العرب وأشعارهم .
وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي وأبو عبدالله المرزباني . وكان
شاعراً كثير الشعر فمن ذلك المقصورة المشهورة . ومنه أيضاً
القصيدة المشهورة التي جمع فيها بين المقصور والممدود إلى
غير ذلك . وقال محمد بن رزق بن علي الأسدي : كان
يقال ان أبا بكر بن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء » .

أما مقصورته فهي أشهر من نار على علم ، وقد أبان فيها
عن تفننه ومقدرته الشعرية وضمّنها من بديع الحكيم
والأمثال ما جعلها أثراً أدبياً فريداً في اللغة العربية بحيث هب
كثير من الأدباء لمعارضتها والنسج على منوالها حتى نشأ من
ذلك باب في الأدب العربي يمكن أن نسميه أدب المقصورة .
ويقال انه أحاط فيها بأكثر المقصور ، فهي إلى أغراضها
الأدبية لها فائدة لغوية كبيرة . وأولها :

يا ظَبِيَّةً أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالمَها
تَرَعَى الخُزامى بين أشجار النقا
إمّا تَرَيَ رَأْسِي حاكِي لَوْنُهُ
طُرَّةَ صَبَحٍ تَحْتَ أَذْيال الدَّجَى
واشتعل المَبْيَضُ في مُسَوَدِّهِ
مَثَلُ اشتعال النار في جَزَل الغضا

فكان كالليل البهيم حلّ في
أرجائه ضوءُ صباح فانجلي
وغاضَ ماءَ شيرتي دهرٌ رمى
خواطرَ القلبِ بتبريحِ الجوى
وآضَ روضُ اللهو ينساً ذاوياً
من بعد ما قد كان مجّاجَ الثرى
وضرمَ النأيُ المشتَ جذوةً
ما تأتلي تسفعُ أثناءَ الحشا
وانخذ التّسهيّدُ عيني مألّفاً
لما جفا أجفانها طيفُ الكرى
فكلّ ما لاقيته مغتفـر
في جنب ما أسأره شحطُ النوى

ومن حِكَمها :

مَنْ ظَلَمَ الناسَ تحامَوْا ظُلْمَه
وعزَّ عنهم جانباه واحتمى
وهم لمن لانَ لهم جانبُه
أظلمُ من حيّاتِ انباثِ الشفا
عبيدُ ذي المال وإن لم يطمعوا
من غمّرة في جرعة تشفي الصدى

وَهُمْ لَمَنْ أَمْلَقَ أَعْدَاءُ وَإِنْ
 شَارَكَهُمْ فِيمَا أَفَادَ وَحَوَى
 عَاجَمْتُ أَيَّامِي وَمَا الْغَيْرَ كَمَنْ
 تَأْزِرُ الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَارْتَدَى
 لَا يَرْفَعُ اللَّبَّ بِلَا جَدٍّ وَلَا
 يَحُطُّكَ الْجَهْلُ إِذَا الْجَدُّ عَلَا
 مَنْ لَمْ يَعْظُهُ الدَّهْرُ لَمْ يَنْفَعَهُ مَا
 رَاحَ بِهِ الْوَاعِظُ يَوْمًا أَوْ غَدًا
 مَنْ قَاسَ مَا لَمْ يَرِهِ بِمَا يَرَى
 أَرَاهُ مَا يَدْنُو إِلَيْهِ مَا نَأَى
 مَنْ مَلَكَ الْحِرْصَ الْقِيَادَ لَمْ يَزَلْ
 يَكْرَعُ فِي مَاءٍ مِنَ الذَّلِّ صَرَى
 مَنْ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ انْتِهَاءِ قَدْرِهِ
 تَقَاصَرَتْ عَنْهُ فَسِيحَاتُ الْخَطَا
 مَنْ نَاطَ بِالْعُجْبِ عُرَى أَخْلَاقِهِ
 نَبِطَتْ عُرَى الْمَقْتِ إِلَى تِلْكَ الْعُرَى
 وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ
 وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَى
 وَلِلْفَتَى مِنْ مَالِهِ مَا قَدَّمَتْ
 يَدَاهُ قَبْلَ مَوْتِهِ لَا مَا اقْتَنَى

ولأنما المرءُ حديثٌ بعده
فكُنْ حديثاً حسناً لمن وعى

وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين ،
وشرحوها وتكلموا على ألفاظها . قال ابن خلكان : « ومن
أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبدالله محمد بن أحمد
ابن هشام بن إبراهيم اللخمي السبتي وكان متأخراً ، وتوفي
في حدود سنة سبعين وخمسمائة . وشرحها الامام أبو عبدالله
محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب الجامع في
اللغة » . وشرحها غيرهما أيضاً .

ومن شعر ابن دريد قوله في وصف الحمرة :

وحمرَاءَ قبل المزج صفراء بعده
أتتُ بين ثوبَي نرجس وشقائق
حكّتْ وجنّة المعشوق صِرْفاً فسلّطوا
عليها مزاجاً فاكتست لونَ عاشق

ومنه في الغزل :

غراء لو جلت الحدود شعاعها
للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دِعْصٍ تأوّدَ فوقه
قَمَرٌ تالّق تحت ليل مُطبّق

لو قيل للحسنِ احتكِمْ لم يعدْها
أو قيل خاطب غيرَها لم ينطبق
وكأننا من فرعِها في مغرب
وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهِتِفُ للعيون ضياؤها
الويلُ حلَّ بمُقَلَّة لم تُطبق
وشعره كثير جمعه أحد فضلاء الهند في ديوان ونشره
بعناية . وتوفي ابن دريد سنة ٣٢١ .

الزَّمَخْشَرِي

ومنهم أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزَّمَخْشَرِي
جار الله العلامة الامام في النحو واللغة والبيان والتفسير ، له
التصانيف البديعة التي دلَّت على رسوخ قدمه في العلم بالعربية
وأسرارها ، ومنها تفسيره العظيم المسمى بالكشاف في
مجلدين ، أبرز فيه معاني القرآن وبلاغته بما لم يُجاره فيه
أحد ، وله كتاب المُفَصَّل في النحو أشهر من أن يُعرَّف ،
وكتاب أساس البلاغة في اللغة ، وكتاب الفائق في تفسير غريب
الحديث ، وكتاب المقامات بديع جداً تنكب فيه أغراض
أصحاب المقامات المعروفة من الشحاذة والاحتيال وسلك
نهج الحكمة والموعظة الحسنة . وكان يميل إلى الاعتزال

ويشارك في الأدب بسهم وافر ، ومن شعره في العتب على
الزمن :

وأخَرَنِي دَهْرِي وَقَدَّمَ مَعَشَرًا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَأَعْلَمُ
وَمُذْ أَفْلَحَ الْجَهَالُ أَيْقَنْتُ أَنِّي
أَنَا الْمَيِّمُ وَالْأَيَّامُ أَفْلَحَ أَعْلَمُ

الأفلح مشقوق الشفة السفلى والأعلم مشقوق الشفة
العليا ، ومن كان كذلك لا يقدر على النطق بحرف الميم ،
وقد كنتي الزمخشري بذلك عن حرب الدهر له وتقديم
من هو دونه عليه .

وله في رثاء أحد أشياخه :

وقائلةٍ ما هذه الدَّرَرُ التي
تساقطُ من عينيكَ سِمَطينَ سِمَطينَ
فقلتُ لها الدُّرُّ الذي كان قد حشا
أبو مُضَرٍّ أذني تساقط من عيني

وهو بديع وقد تداوله بعده غيره من الشعراء .

ومن قوله في العلم المحيط :

العلمُ للرحمن جلَّ جلالهُ وسواه في جهلته يتغممُ
ما للتُّراب وللعلوم وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلمُ

أبو حيّان الغرّناطي

ومن النحاة أيضاً الشيخُ أثيرُ الدّين أبو حيّان محمد بن يوسف الغرّناطي . كان اماماً في العربية لا يُضاهى مشاركاً في العلم بالحديث والتفسير ، وله اليد الطولى في الأدب . ألف البحر المُحيط في تفسير القرآن في ثمانية مجلدات ، أتمّ فيه إماماً وافياً باعراب آيات الكتاب العزيز وتفسير ألفاظه اللغوية والاستشهاد على ذلك بكلام العرب . وشرح كتاب سيبويه وكتاب التسهيل لابن مالك ، وألف في القراءات السبع كُتُباً مفردة ، وكان يعرفُ اللغة التركية وألف فيها عدة كتب ، ويُعتبر هو مؤسس نحويها ومُقعّده ، ولكتبه اليوم في تركيا قيمة علمية وقد اعتُنِي بها ونُشِرَت نشرًا محققاً لظهور فائدتها واعتماد القوم عليها . كما ألف في اللغة الفارسية والحبشية وفي غير ذلك من المباحث الأدبية والتاريخية وله ديوان شعر كبير ما يزال مخطوطاً اشتمل على قصائد في موضوعات شتى ومقطعات وموشحات بديعة النظم رقيقة المعنى .

من شعره الغزلي :

سَبَقَ الدَّمْعُ بِالمَسِيلِ المطايا إِذْ نَوَى مِنْ أَحَبِّ عَنِي نُقْلَهُ
وَأَجَادَ السَّطُورَ فِي صَفْحَةِ الْحَدِّ وَلَمْ لَا يُجِيدُ وَهُوَ ابْنُ مُقْلَهُ

وفيه تورية جميلة . ومنه :

أَلَا إِنْ الْحَاطِأَ بِقَلْبِي عَوَابِثًا
أُظِنَّ بِهَا هَارُوتُ أَصْبَحَ نَافِثًا
إِذَا رَامَ ذُو وَجَدٍ سُلُوءًا مَنَعْنَهُ
وَكَنَّ عَلَى دِينِ التَّصَابِي بَوَاعِثًا
وَقَيَّدَنَ مَنْ أَضْحَى عَنِ الْحُبِّ مَطْلَقًا
وَأَسْرَعَنَ لِلْبُلُوى بِمَنْ كَانَ رَائِثًا

ومن نظمه المشهور :

عِدَايَ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمَنَّةٌ
فَلَا أَذْهَبُ الرَّحْمَنَ عَنِي الْأَعَادِيَا
هُمْ عَرَفُونِي زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا
وَهُمْ نَافَسُونِي فَاکْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

ومنه أيضاً :

يُظَنُّ الْغُمْرُ أَنَّ الْكُتُبَ تَهْدِي أَخَا فَهْمٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَدْرِي الْجَهْلُ بِأَنَّ فِيهَا غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ

إذا رُمّت العلوم بغير شيخ ضَلَلْتَ على الصراط المستقيم
وتلتبسُ الأمور عليك حتى تصيرَ أضلَّ من ثوما الحكيم

وأخبار أبي حيان وشعره أكثر من هذا الذي ذكرناه .
ونحن ليس قصدنا الترجمة له ولا لغيره ممن ذكرناه أو نذكره
حتى يلزمنا استيفاء أخباره والامامُ بأكثر شعره . وإنما ننبه
على عالميته ونُوردُ أمثلةً من شعره تثبت مقدرته الشعرية
التي لا تنافى ووصفَ العلم الذي قام به ولا يصحّ معها أن
يقال في نظمه أنه شعر فقيه ، فإذا حصلنا على هذه النتيجة
فذلك غاية ما نقصد إليه . وإذا كان ناقدنا الحزنائي قد حكم
على شعر أبي الفضل بن النحوي لمجرد بيت واحد من شعره
كما سبق ذلك ، فإن ما نرويه نحن من أبيات ومقطّعات عديدة
للشخص لهو أخرى أن يكون أوثقَ في الحكم وأدلَّ على
صحته وصوابه ، مع ما نُحلِّلُ منها ونُبْرِزُ من محاسنها
إذا اتسع المجال لذلك . توفي أبو حيان سنة ٧٤٥ بمصر .

يعقوب الكندي

فيلسوف العرب أبو يوسف بن اسحاق بن الصباح من
أبناء ملوك كندة ، قال سليمان بن حسان أن يعقوب بن اسحق
الكندي شريف الأصل ، بصري كان جده ولي الولايات
لبنى هاشم ونزل البصرة وضيّعته هناك ، وانتقل إلى بغداد

وهناك تأدب وكان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللّحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذى في تأليفه حذوّ أرسطوطاليس . وله تأليف كثيرة في فنون من العلم ، وخدم الملوك فباشرهم بالأدب ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب ، وبسط العويص ذكره في عيون الأنباء . وكان الكندي إلى تبجّره في العلم ورسوخ قدمه في الفلسفة يتعاطى الأدب ويقول الشعر الجيد فمن قوله متغزلاً :

وفي أربع مني حلت منك أربع
فما أنا أدري أيها هاج لي كربي
أوجهك في عيني أم الطعم في فمي
أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

أنشدهما ابن قتيبة في بعض كتبه وقال : والله لقد قسمها تقسيماً فلسفياً . وأنشد له الشيخ أبو أحمد الحسن بن عبد الله ابن سعيد العسكري اللغوي في كتابه الحكم والأمثال قوله في الحكمة وطبائع الناس :

أناف الذنابي على الأروس فغمض جفونك أونكس
وضائل سوادك واقبض يديك وفي قعر بيتك فاستجلس

وعند مَلِيكَكَ فابغِ العُلُوَّ وبالوحدة اليومَ فاستأنس
فإنَّ الغنى في قلوب الرجال وإنَّ التعزُّزَ بالأنفُسِ
وكائن تَرى من أخِي عُسْرَةَ غنيّ وذِي ثَرَوَةٍ مُفْلِسِ
ومِن قائم شخصه مَيِّت على أَنه بعدُ لم يُرْمَسِ
فإن تَطْعِمِ النفسَ ما تشتهي تُقِنُّكَ (١) جميعَ الذي تحسِي

وهذه الأبيات في خفتها وسهولتها ، على ما تحويه من
حِكَمٍ عَمَلِيَّةٍ وتجاربَ فلسفيَّةٍ ، تزري بكثير من الشعر
الذي ينسب إلى شعراء ليس عملهم إلا الشعر ولا صنعة لهم
إلا القريض . مما يثبت أن العلماء كثيراً ما ترجَّحُ كفتهم
حتى في هذا الأدب الذي يدَّعي بعض الناس أَنه وقف
عليهم وإن بضاعة العلماء فيه مُزْجاة . والبيت الأخير من
القطعة يشِفُ عن عِلْمِ صاحبه بالطِبِّ ويبعث على
الاعجاب بصوغه لذلك المعنى في هذه الصورة وبهذه الألفاظ
الفنيَّة التي اكتست بحسن تأتية لها حُلَّةُ البيان والوضوح .
وقد لاحظ ابنُ قتيبة ما في البيتين السابقين من حُسْنِ المقابلة
والتقسيم وأشار إلى أن ذلك نزعة فلسفية لم تزد الشعر إلا
جمالاً ولطفاً . ولا حاجة بنا إلى القول أننا لا نقصد هنا ذكر
الشعر الفلسفي فذاك باب سنطرقه عند تعرُّضنا لموضوعات
شعر الفقهاء والعلماء ، وإنما قصدنا الشعر المنبعث من العاطفة
والتجربة المُعاشة الذي يقوله عامة الشعراء ويشاركهم فيه

(١) في عيون الانباء: تقيك وهو تصحيف .

غيرهم من متأدبي أهل الفقه والعلم . ومن حسن الحظ أن
فيلسوف العرب الأكبر الذي ضربناه مثلاً للفلاسفة الذين
قالوا الشعر الجيّد ولم تقعد بهم الفلسفة عن بلوغ هذه الغاية ،
كانَ منَ المُجَلِّينَ في ذلك المَجال والحائزينَ فيه قَصَبَ
السبق كما رأينا .

أبو بكر بن زُهر

الطبيب الشهير ، كان من أهل بيت كلّهم أطباء حكماء ،
الرجال والنساء في ذلك سواء ، ومع أنه لم يكن في زمانه أحد
أعلم منه بصناعة الطب ، فقد كان مُشاركاً في علم الفقه
والحديث ، وله معرفة واسعة بعلم الأدب والعربية ، كان
يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث اللغة كما قيل . وخدم ببطبه
وأدبه الدولتين اللمّتونية والمُوحّدية وحظي عند يعقوب
المنصور حتّى كان يُصرّفه في كثير من شؤون الدولة لثقته
به ولما خبره من دينه وأمانته . وكان لا يصبر على فراقه
ولا يُرَخِّصُ له بالسفر إلى اشبيلية لرؤية أهله وولده ،
فسمعه ذات يوم يُنشدُ هذه الأبيات يتشوق فيها إلى ولد
له صغير :

صغيرٌ تخلّفتُ قلبي لدينه
لذلك الشُخَيص وذاك الوُجَيه

ولي واحدٌ مثلُ فرّخ القطا
وأفردتُ عنه فيا وحشتي

تشوّقني وتشوّقته فيبكي عليّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إليّ ومنّي إليه

فبعث المهندسين إلى اشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علماً
ببيت ابن زهر وحرّته وبنتي مثلها بحضرة مراکش في
أقرب وقت ونقل عيال ابن زهر إليها بعد فرشها بمثل فرشه
واحتال عليه حتى أتى الحارة ورأى مثل داره فعجب لذلك
وقيل له ادخل الدار فدخلها فإذا هو بأهله وولده الذي
تشوق إليه فما كاد يملك نفسه من الفرح والسرور .

وحرّيتي بمن كان في مثل علم ابن زهر وأدبه أن يحظى
بهذه الرعاية من ملك مثل المنصور الموحي الذي خلّد
التاريخ أعماله ومآثره .

ومن شعر ابن زهر :

إني نظرتُ إلى المرأة إذْ جُليت
فأنكرتُ مقلّتي كلّ ما رأيتُ

رأيتُ فيها شيئاً لستُ أعرفه
وكنْتُ أعرفُ فيها قبل ذاك فتى

فقلتُ أين الذي مثواه كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان متى ؟

فاستجھلتني وقالت لي وما نطقت
قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَهَذَا لَا بَقَاءَ لَهُ
أَمَا تَرَى الْعُشْبَ يَفْتَنِي بَعْدَمَا نَبَتَا ؟
كَانَ الْغَوَانِي يَقْلُنْ يَا أُخِي فَقَدْ
صَارَ الْغَوَانِي يَقْلُنْ الْيَوْمَ يَا أَبْنَا

وفي هذه القطعة تصوير بديع للشيخوخة وتعبير بليغ عن
الحسرة التي يجدها المرء في نفسه على شبابه الذاهب وعمره
المنقرض . وما أحسن قوله شُيِّخًا في هذا المقام ، مقام
الأسف على ما آلت إليه حاله ، فهو لا ينظر الآن إلى وقار
المشيخة وحكمة التقدم في السن ، وإنما ينظر إلى ضُففه
ونقصان مُنَّته فما يُناسب ذلك إلا صيغةُ التصغير التي
تبدو كأنها لم تُوضع إلا لهذا المعنى . ومثله قوله : « كان
الغواني يقلن يا أُخِي » فإن التصغير هنا للتجَبُّب والتقرَّب
وهما أنسبُ بحالة الشباب التي كان عليها وأنكى في ملاحظة
الفرق بينها وبين الشيخوخة الفانية .

ويظهر أن تمكنه من الطب واللغة معاً كَوَّنَا فيه إحساساً
دقيقاً بتشخيص الحالة التي يريد وصفها واختيار اللفظ المطابق
لها مطابقة فنية ، فلذلك رأيناه يستعمل التصغير أيضاً في الأبيات
المتقدمة التي نظمها في التشوق لولده الصغير ، وذلك حين
يقول : « فيا وحشتي ، لذاك الشخيْص وذاك الوجيْه » ،
ولا خفاء بحسن موقع التصغير هنا وجماله . وليقارن القارئ

بينه وبين استعمال المتنبي له في مثل قوله : « لِيَيْلَتُنَا
المنوطة بالتنادي » وقوله : « أذمُّ إلى هذا الزمان أهيله »
ليزيدَ بعدُ معرفةً بشاعرية صاحبنا .

ومن شعر ابن زهر في الحمريات :

وموسدين على الأكف خدودهم
قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فضائهم
حتى سكرتُ ونالهم ما نالني
والحمر تعلمُ حين تأخذُ ثأرها
أني أملتُ إناءها فأمالني

وهو في هذه الأبيات على ما عهِدَ منه من لطف وأدب
وحسن تصوير . فقد نقل إلينا منظر هولاء الشرب وقد نال
منهم الشراب ، بجلاء ووضوح كأننا نراه ، وبَيَّن أنه كان
ساقِيهم فهو يُقدِّمهم على نفسه لمكانتهم عنده ، ولا يشرب
إلا بعدهم ، فإذا ذكر السُّكْر بدأ بنفسه وعبرَ في حقهم
بعبارة مُهذَّبة هي الغاية في أدب المُعاشرة ، ثم لَطَفَ ما
شاء له اللطف حين أشار إلى الحمر وثأرها وكَمَّلَ الصورة
بهذه الحركة التي جعلتها تنبِضُ بالحياة والواقعية والتمثيل ،
فهل يُعلَى على هذه الشاعرية ؟

ولابن زُهر مُوشَّحات مشهورة يُغنى بها وهي من
أجود ما قيل في ذلك . ولعلَّ أسيرها على الألسنة الموشح
الذي يقول فيه :

أيها الساقى إليك المُشْتكى قد دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
ونديم همتُ في غُرَّتِه وشربتُ الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته جذبَ الزَّقَّ إليه واتَّكا
وسقاني أربعاً في أربعِ

وهو يمثل حياةَ اللهو في الأندلس التي ما يزالُ مظهرها
هو هذا إلى الآن .

ابنُ الياسمين

وهذا عالم رياضي راسخ القدم في العلم بالحساب والجبر ،
وهو مع ذلك له باع طويل في الأدب ونظم الشعر ، حتى
انك إذا سمعتَ شعره تقول لا صنعة له إلا النظم ، فإذا
ثأفنتَ كتبه في الرياضيات قلتَ إنما يحسن هذا مَنْ انقطع
إليه ولم تكن له همة في غيره .

وهو أبو محمد عبدالله بن محمد بن حجاج من أهل مدينة
فاس ، عُرِفَ بابن الياسمين ، والياسمين أمه . وكان من
خدام المنصور الموحدي ومن جلسائه . له أرجوزة في علم
الجبر شهيرة ، قرئتُ عليه وسمعت منه باشيلية . وشرحها
الكثير من أهل هذا العلم . وله أيضاً كتاب تلقيح الأفكار في

العمل برُسوم الغُبار . وفيه يذكر أصل الأرقام العربية المستعملة في المغرب وأختتها المستعملة في المشرق ويُبين أنها جميعاً من أشكال حروف الغُبار وان أطلق على الثانية اسم الأرقام الهندية وبقيت الأولى محتفظة بوصف الغبار وهو كتاب نفيس جداً ما يزال مخطوطاً .

ومن شعره الذي أنشده له ابنُ سعيد المغربي في الغُصون اليبانة قوله وقد رأى زهراً نارنج بظاهر مدينة مراکش :

جاء الربيعُ وهذا	أولَى البشائر منه
كأنما هو ثَغَر	قد جاء يضحك عنه
زهراً لِنَارَنَج دُوح	انظر إليه وَصْنَه
أليس حيّاً كَعرفُ	الذي جفَا من لدُنْه

وقد أورد له ابن سعيد أشعاراً كثيرة في المدح والهجاء وغيرهما فلتُنظر في كتابه المذكور . وتوفي ابن الياسمين سنة ٦٠١ .

الشريف الإدريسي

الجغرافي الشهير أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس . كان جده إدريس من ملوك الحموديين بالأندلس . وولد هو بسببة بعد استقرار سلفه بها عند انقراض دولتهم . وخرج

سائحاً في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى ، واستدعاه رُوجار
الثاني ملك صقلية فأقام عنده وألف له كتابه « نزهة المشتاق
في اختراق الآفاق » كتاب شهير لم يؤلف مثله في الجغرافية
في العصر الوسيط . وصنّع كرة سماوية ودائرة أرضية من
الفضة فُقِدَت في حروب صقلية . ويُجمِع العلماء على
أن خارطة الإدريسي أضبطُ خارطة لأكبر الأرضية وُضِعَتْ
بعد بطليموس ولا تزال المعلومات التي أعطاها الإدريسي في
كتابه نزهة المشتاق عن عروض بعض البلدان وأطوالها صحيحة
في جملتها لم تخالفها التحقيقات الجديدة إلا بالشيء اليسير .
وكان للإدريسي علم بالطب والنبات ، وله في ذلك كتاب
الأدوية المفردة . وإلى هذا كانت له يدٌ طولى في الأدب
ونظم الشعر ومن قوله في شكوى الزمان :

إنَّ عَيْباً على المشارق أن أر
جِيعَ عنها إلى ذُيول المغارب
وعجيبٌ يضيع فيها غريبٌ
بعد ما جاء فيكره بالغرائب
ويُقاسي الظَّما خلال أناسٍ
قسَمُوا بينهم هدايا السحاب

ومنه في الموضوع :

لَيْتَ شَعْرِي أَيْنَ قَبْرِي
ضَاعَ فِي الْغُرْبَةِ عُمْرِي
لَمْ أَدْعِ لِلْعَيْنِ مَا تَشَاءُ
تَأَقَّ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ
وَحَبَّرْتُ النَّاسَ وَالْأَرْ
ضَ لَدَى خَيْرٍ وَشَرٍ
لَمْ جَدْ جَاراً وَلَا دَا
رَا كَمَا فِي طَيِّ صَدْرِي
فَكَأَنِّي لَمْ أُسِرْ إِلَّا
بِمَيِّتٍ أَوْ بِقَفْرِ

ولا حاجة إلى التنبيه على بلاغة هذه الأبيات ، والتي قبلها ،
وتعبيرها عن حسرة الحرمان الذي لقيه الإدريسي في بلاده
ومن بني قومه ، سواء في المشرق والمغرب ، فإنها في غنى
عن ذلك ولا يستطيع ناقد أدبي أن يقول فيها أنها دون مستوى
الشعراء المشهود لهم بالاجادة والاحسان ، وإن كان قائلها
عالماً مختصاً . وكانت وفاة الإدريسي ببلده سبتة في سنة
٥٦٠ هـ .

هوؤلاء سبعة من العلماء ، ثلاثة منهم كانوا أئمة في علوم
العربية من نحو ولغة وغيرها ، وبراعتهم في قول الشعر ترد
على من يرى أن أهل المعرفة بعلوم العربية وخاصة النحاة
أضعفُ الناس شعراً وأقلهم إجادة فيه ، كما ترد على من

يقول بقصور العلماء على العموم عن قول الشعر والتفوق فيه .
والأربعة الباقون كل واحد منهم مَمَّنْ برَزَّ في باب من أبواب
المعرفة الإنسانية ، كالفلسفة والطب والحساب والجغرافية ،
ولم يفتِّه أنْ يُسهم بحظ وافر في الأدب والشعر ، يَكُمُّ
أفواهَ المُتقَوِّلين على أدب الفقهاء والعلماء بعامة ، ويُثبت
أن الأمر إنما هو همة واستعداد فمن توفر له ذلك فهو أسوة
غيره من الأدباء والشعراء في الملكة الشعرية وأصالتها ،
ولا يصح أن يقصر عنهم إلا فيما يقتضيه انقطاعهم إلى قول
الشعر من الإكثار وانصرافه إلى كفاياته الأخرى من الإقلال .

وقد اقتصرنا على هذا العدد القليل علماً بأننا لو ذهبنا
نستقصي كل من قال الشعر وأجاد فيه من العلماء لما وسعتنا
المجلدات ، ونحن إنما نضرب المثل ونسوق الشاهد ، وفيما
ذكرناه على هذا الوجه كفاية .

ادب الفقهاء

القسم الثاني

موضوعاته وأغراضه

تفصيل بعد إجمال :

تلك وجوه ومَعَالِمُ من أدب الفقهاء روعي فيها الناحية التاريخية والجغرافية وتنوعُ الاختصاص في أصحاب هذا الأدب إذْ كان وصف الفقهاء كما قلنا يُطلق على مختلف طبقات أهل العلم وخصوصاً في هذا السِّياق من النقد الأدبي . ونحن نشعر أننا قد اختصرنا الكلام اختصاراً شديداً فيما يقتضيه العرض التاريخي والتقسيم الجغرافي للملامح هذا الأدب والتعريف برجاله ، ولكننا مع ذلك قد قاربنا ما يلتزمه مؤرخو الأدب العربي على العموم من الوقوف عند نهاية العصر العباسي في عملية التأريخ ، وإفراد الأدب المغربي والأندلسي بالذكر ، مراعاة لأصحاب النظرية الاقليمية في الأدب الذين يقولون بتأثير العامل الجغرافي في الأعمال الأدبية أو نظراً فقط لبُعْدِ الاقليم المغربي وتأخر وجود أدبه عن أدب المشرق . وعلى كل حال فاعتقادنا أننا قد أعطينا أمثلة حية من أدب فقهاء العصور الأدبية والأقاليم التي يُعنى بها مؤرخو أدبنا العربي ، وهي من حيث الكم لا تقلّ عمّا يعطيه هؤلاء المؤرخون من أمثلة لأدب غير الفقهاء من كبار الشعراء ، ومن حيث الكيف على ما وصفنا في كل مثال عند عرضه .

فلنلقِ نظرة على موضوعات هذا الأدب التي سبق أن
عددناها عدّاً اجمالياً في صدر هذا البحث ، لنقول كلمة
في كل موضوع منها ، ولنعطي مزيداً من الأمثلة على ما تقدّم
ذكره من بعضها غير مُصنّف ولا منسُوق في الباب الذي
يخصّه ، كما أنّ كثيراً من الأسماء التي لم يرد ذكرها في
القسم التاريخي المارّ ، إنما يمكن استيعابها في هذا القسم الموضوعي
بطريقة تعدّاد الأمثلة واختيار الشاهد ، وهكذا نكون قد
قدمنا أدب الفقهاء مرتين ، قدمناه لمن يُعنى بالناحية التاريخية
في تراجم أعلامه مرتبة بحسب السنين ، ونقدّمه لمن يُعنى
بالناحية الموضوعية في فصول وأبواب تنسّظم الأغراض والفنون
التي تناولها الفقهاء في شعرهم ، والتي تُعطينا نماذج من أدبهم
الغضّ في كل موضوع ، ليسهل أمر مقارنتها مع أدب غيرهم
على من يريد ذلك ثم إننا في هذا التقديم الثاني قد نتجاوز
الحد التاريخي الذي وقفنا عنده إلى ما بعده من أزمنة وأشخاص ،
فنذكر نماذج وأسماء من العصور المتأخرة حتى عهد ما قبل
النهضة الحديثة ، ولربما تجاوزناه أيضاً رغبة في ربط الحاضر
بالماضي واعطاء صورة كاملة عن الموضوع الذي نعرض
له ، والحديث شجون كما يقولون :

شعر العاطفة والوجدان

ويدخل فيه الغزل والنسيب . وإنما لم نُعبّر بهما لأنهما في شعر الفقهاء يتميزان غالباً بشيء من التحفظ الذي يقتضيه وقارُ العلم ، وهو تحفظ كثيراً ما بعث أصحابنا الفقهاء على اصطناع الأساليب الرمزية والاهتمام بالصفات المعنوية ، فصار غزلُهم بذلك قلماً يشبه غزل الشعراء الذي تغلب عليه الأوصاف الحسية ويغرق في المادية حتى يكون أدعى إلى الفجور والاستهتار ، وبكل وجه فهناك آفاق واسعة من الشعر الوجداني نظّم فيها الفقهاء ، ليس الغزل إلا جانباً واحداً من جوانبها العديدة ، فحملهُ على الشعر الوجداني أولى من حمل هذا على الغزل .

ونفتح هذا الباب بقول ابن أبي مَلَيْكَة فيما هو من معنى قول شوقي (الحياة الحب والحب الحياة) :

من عاش في الدنيا بغير حبيب
فحياته فيها حياة غريب
ما تنظر العينان أحسنَ منظرأ
من طالب إلفاً ومن مطلوب
ما كان في حور الجنان لآدم
لو لم تكن حواء من مرغوب

قد كان في الفردوس يشكو وحشة

فيها ، ولم يأنس بغير حبيب

نسب هذه الأبيات إلى ابن أبي مليكة الراغب الاصبهاني في محاضراته ، وهي حرية أن تكون أم الباب في هذا المعنى نظراً لمكانة قائلها ، فإنه من فقهاء التابعين ، وقضاة المسلمين - كان يلي قضاء الطائف لابن الزبير - ونظراً لما عبرت عنه من كون الحياة بغير حبيب غربة ، فالخالي القلب من نوازع الحب كالغريب الذي لا يجد رفيقاً ولا صديقاً يأنس به ويشاطره أفراحه وأتراحه ، فيا لو حشته وقلق حياته . وبذلك كان منظر الإلفين أو قل الحبيين أحسن منظر تقع عليه العين ، فما السماء بقمرها ونجومها ، والأرض برياضها وحياضها ، والشروق بسحره وجماله ، والغروب بروعته وجلاله ، وكل شيء مهما كان حسناً جميلاً ، إلا انعكاس لذلك المنظر الذي لا يحلو في العين شيء بدونه ، ولا يبدو فيما يبدو به من حسن وجمال إلا لأن المحبتين خلعوا عليه تلك الحلقة ، وزانوه بذلك الحلي . وابن أبي مليكة يفرغ الجنة من جميع الرغائب ، وهي الجنة حافلة بما تصبو اليه النفس ويميل إليه القلب - إذا لم تكن فيها حواء تبادل آدم حباً بحب ، وتقابل شعور الأنس والعطف منه بمثله ، حتى الحور العين لا تدخل تلك المداخل ولا تملأ ذلك الفراغ وهو معنى بديع لم يسبق اليه ، وفيه طمأنينة وسكينة لعقائنا ورفيقاتنا من الجنس

اللطيف اللائي يتَبَرَّمنَ كثيراً بهؤلاء الحُور العين ويستوحشن
من مشاركتهن لهن في أزواجهن في الجنة ، فهذا شاعر فقيه
يُبين أن لا جمال الحور العين ، وهو جمال ضرب جميع
الأرقام القياسية في هذا الصدد ولا شيء مما في الجنة من
المُغريات ، بقادر على أن يصرف الأحاباب عن أحبابهم
وبخاصة الرجل عن شريكته في الحياة الأولى لأن ما بينهما
أسمى وأعلى من كل ذلك ، انه رباط رُوحى وامتزاج قلبي ،
بدأ منذُ كانا مُتَجَدِّلين في الطين ، وما زال ينمو ويقوى
ويَجذب هذا نحو هذه حتى اندمج كل منهما في الآخر
وأصبحا ذاتاً واحدة تَجَرَّ وراءها من الذكريات بقدر ما
اشتبكت به حياتهما الماضية من العلاقات ، فكيف وأنتِ للحُور
العين بهذا التجاوبِ وما فيه من متاع ؟

إننا لهذه المعاني الجميلة التي تضمنتها هذه الأبيات ، ولتقدمها
زمناً باعتبار أن قائلها من أهل الصدر الأول ، قلنا انها حرّية
أن تكون أمّ الباب في شعر الغزل والنسيب ، وما أشبهها
بأبيات ابن الرومي السائرة في حب الوطن التي يقول فيها
(ولي وطن آليتُ أن لا أبيعهُ) فكما بقيت هذه غُرّة الشعر
العربي في معناها ، كذلك يحق لأبيات ابن أبي مليكة أن تكون
واسطة العقد في بابها ، ولا ننس مع ذلك أن صاحبها فقيه .

ولأبي بكر بن عبد الرحمن الزهري ، وهو من رجال
الرواية والحديث :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبُستاناً من النور حالياً
أجددً لنا طيبُ المكان وحسنه منى ، فتمنينا فكنتِ الأمانيا

هذان البيتان من أحسن ما قيل في تمني لقاء الحبيب عندما
تجاول الطبيعة محاسنها ، ويروقُ المكان ويطيب المجلس ، فلا
يكمل سرور المحب بذلك ، ولا تقرّ عينه بما يرى ، حتى
يحضر حبيبهُ ويُضفي من روحه وجماله على تلك المجالي ،
ما يجعلها تحلّ من نفسه محلّ الرضى والقبول ، وإلا فإن الجنة
ونعيمها على ما مرّ آنفاً لا يحلو منها شيء بدون مشاركة الحبيب.
ولذلك كان وجوده في مثل هذه الحال أقصى الأمانى كما عبر
عنه هذان البيتان أرقّ تعبير . ولا يفوتنا أن نقول انهما من
شعر الحماسة ، ولا يختار أبو تمام لديوانه هذا إلا ما كان
غاية في حسن أسلوبه ومعناه .

ومن الشعر العاطفي المُجرّد قولُ أبي بكر الشبلي من
أكابر الصّوفية :

رُبَّ ورقاءٍ هتُوف في الضحى
ذات شجنٍ صدحت في فنن
ذكرت إلهاً وعيشاً سالفاً
فبكت حزناً فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها
وبكاهها ربما أرقني

ولقد تشكوُ فما أفهمُها

ولقد أشكوُ فما تفهمُني

غير أني بالجوَى أعرفُها

وهي أيضاً بالجوى تعرفني

أتراها بالبكا مؤلعةٌ

أم سقاها اليبسُ ما جرّعني

وهي مُقطّعة تكاد تسيل رِقّةً وعذوبةً ، فما شئت من حسن التقسيم ورد العجز على الصدر ، ومن جمال الأداء لهذا التّداعي بينه وبين الحمامة الشّجية وتشابه حاله وحالها في الشوق إلى الحبيب والبكاء لبعده ، إلى قوة التخيّل الذي جعله يعتقد أنها تحس بحرقته وجواه كما يحس هو بجواها وحرقتها ، وإن لم يكن الأمرُ كذلك فلمَ هذا البُكاءُ المرُّ ؟ هل هو ولوع فقط أم هوَ في الواقع شعور باليبس وفرقة الحبيب . مثل شعوره هو بذلك الذي هاج حزنه وبكاه ؟ الحقيقة أن القطعة معبّرة أحسن من هذا الذي قلناه في شرحها ، وأنها في غنى عن كل تفسير ، فهي بشكلها وضمونها قد استولت على الغاية من جَمال الصياغة وحسن البيان .

ومن لطيف الغزل قول القاضي عياض :

رأتُ قمرَ السماء فأذكرُني لياليَ وصلِها بالرقمتين

كلانا ناظرٌ قمرًا ولكن رأيتُ بعينها ورأت بعيني

لهذين البيتين شهرة كبيرة بين الأدباء ، وهما وإن لم يُعبّرا
 عن عاطفة مشبوبة ولا عن شعور عميق ، فقد تضمنا صنعة
 بيانية عجيبة مبنية على خيال بارع جعلتهما يمثلان نوعاً فريداً
 من الرمزية في الأدب العربي وذلك هو سبب الشهرة التي
 حظيا بها حتى ادعاهما كثير من الأدباء . فقوله (كلانا ناظر
 قمرأ) هو أعمّ من أن يراد به قمر السماء ولذلك عقبه بما
 يفيد أن هناك قمرين ، المحبوبة الشبيهة بالقمر ، والقمر
 الحقيقي الذي هو قمر السماء ، لكنه يرى أن المحبوبة هي
 القمر الحقيقي فلذلك كان ينظر إليها بعينها هي التي تنظر
 إلى قمر السماء ، وهذا عنده هو القمر المجازي ، فلذلك جعل
 المحبوبة تنظر إليه بعينه هو التي ينظر إليها بها . وذلك هو قوله
 في الأول (ولكن رأيت بعينها) وفي الثاني (ورأت بعيني)
 ولا شك أن تخيّل هذا هو من إغراقه في هوى المحبوبة بحيث
 جعلها هي التي يحق أن يشبه بها القمر ، ثمّ كان صوغ هذا
 المعنى في بيتين اثنين من الشعر منتهى البراعة والمقدرة .

ومن بليغ الشعر في الرقة والنحول قول محمد بن عبد الكريم
 الفنّدلاوي الفاسي المعروف بابن الكتّاني ، أحد مشايخ
 محي الدين بن عربي :

وما أبقى الهوى والشوقُ مني
 سوى نفسٍ تردّد في خيال
 خفيتُ عن المنية أن تراني
 كأن الروح مني في مُحال

ولكي نتبين فضل هذين البيتين في معناهما ، عَلَيْنَا أَنْ
نقارنهما بقول المتنبي في ذلك :

كفى بجسمي نُحولاً أني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فإنه أثبت لنفسه جسماً وكونه رجلاً يخاطب صاحبه ،
في حين أن صاحبنا لم يبق منه إلا نفس متردد في خيال ، ثم
إن المتنبي جعل صاحبه يراه ، وأما صاحبنا فقد خفي حتى
عن الموت أن يراه وجعل روحه كأنها في محال ، فبين الشعرين
بَوْنٌ بعيد .

والشيخ محي الدين أعظم شعراء الوجد والغرام من الفقهاء
والصوفية ، وله ديوان سماه ترجمان الأشواق فيه كل معنى
بديع من شعر الغزل والنسيب والحب الإلهي ، ونقتصر من
قوله على هذه الأمثلة المختارة بمعرفتنا :

مَرَضِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ	عَالَلَانِي بِذِكْرهَا عَالَانِي
هَفَّتِ الْوُرُقُ فِي الرِّيَاضِ وَنَاحَتْ	شَجَوُ هَذَا الْحَمَامِ مِمَّا شَجَانِي
بِأَبِي طِفْلةٌ لَعُوبٌ تَهَادَى	مِنْ بَنَاتِ الْحُدُورِ بَيْنَ الْغَوَانِي
طَلَعَتْ فِي الْعِيَانِ شَمْساً فَلَمَّا	أَفْلَتْ أَشْرَقَتْ بِأَفْقِ جَنَانِي
يَا طُلُولاً بِرَامَةِ دَارَسَاتٍ	كَمْ حَوَتْ مِنْ كَوَاعِبِ وَحِيسَانِ
بِأَبِي ثُمَّ بِي غَزَالٍ رَيْبٍ	يَرْتَعِي بَيْنَ أَضْلَعِي فِي أَمَانِ
مَا عَلَيْهِ مِنْ نَارِهَا فَهُوَ نُورٌ	هَكَذَا النُّورُ مُخْمِدُ النَّيرَانِ

وله على طريقة مهيار :

واحرّبا من كبدي واحرّبا واطربا من خلدي واطربا
 في كبدي نارُ جوى محرقة في خلدي بدرُ دُجى قد غربا
 يا مَبْسَمًا أَحْبَبْتُ منه الحَيَا ويا رُضابا ذقتُ منه الضَّرَبَا
 يا قمرًا في شفق من خفَر بخده ، لاح لنا مُتَقَبِّبَا
 لو انه يُسفر عن بُرقعه كان عذابًا ، فلهذا احتجبا

وله أيضاً والأبيات الثلاثة الأخيرة هي مما شرق وغرب
 من شعره :

الا يا حمامات الأراكـة والبان
 ترفقن لا تضعين بالشجو أشجاني
 ترفقن لا تظهرن بالنوح والبكا
 خفي صباباتي ومكنون أحزاني
 أطارحها عند الأصيل وبالضحى برنة مشتاق وأنة هيئمان
 ومن عجب الأشياء ظي مبرقع يُشير بعنّاب ويومي بأجنان
 ومرعاه ما بين الترائب والحشا ويا عجب من روضة وسط نيران
 لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
 وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواحُ توراة ومصحف قرآن
 أدينُ بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

تُعطينا هذه النماذج على اقتضاها فكرة عن شاعرية الشيخ
 الأكبر ، خاصة في موضوع المواجد والأشواق ، فهو شاعر
 واسع الأفق متفتح الذهن ، يزاوج بين التزعتين الحسية

والمعنوية ، ويشير في خفاء إلى مرامه ولكنه لا يرمز ولا يُغمِض ، ومن ثمّ كانت أغراضه مفهومة حتى إنه ليؤاخذُ بها عند من لا يقبلون هوادة في ميدان التشريع. ونحن نقبل كلامه على أنه من طموح النفس الشاعرة وبَسْطَها وتحليقها في سماء المعرفة ونشداها للكمال فقد قال ابراهيم عليه السلام (رَبِّ ارِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) وقال موسى صلوات الله عليه (رَبِّ ارِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ) وقال سيدنا محمد (ص) « نحن أحقّ بالشكّ من ابراهيم » فكيف بنا معشر المحجوبين عن حكمة الخلق وسرّ الوجود لا نتطّلع ولا نستفهم ؟ نعم قد يزلّ الواحد منا فيسبق لسانه إلى ما فيه مواخذة عليه ، لأننا غير معصومين ، وهل كان الغفران إلا للزلل ؟

وما أرقّ كلام صاحبنا في القطعة الأولى ، وألطف صفته لحبه بالمرض ، ولحييته بمريضة الأجفان متوخياً في ذلك هذا الجناس الخفيف الذي لا تكلف فيه ، ثمّ محاورته بعد ذلك لرفيقته ، وصِفَتُهُ بعد للحمام طائراً ونائحاً في الرياض ، مثيراً لشجته مهيجاً لحزنه ، مما جعله يعود لذكر الحبيبة وتفديتها بأبيه على عادة العرب في إظهار شعورهم نحو من يحبون ، وما أن جدّد وصفها في رشاقة وتجبّب بما تعود الشعراء أن يصفوا به الحبايب حتى غلبت عليه نزعة المعنوية فأتى في البيت الرابع بما يفهم منه أنه يريد الحقيقة العليا ملمحاً إلى رؤية الحليل للشمس بازغة ثم آفلة ، ولكنه

لم يكن مُتعرِّفاً بل واصفاً ، لأن شاهد الرسالة على المطلوب قائم معه ، فلذلك لم يكن غروب الشمس عنده نهاية وعلامة نقص بل بداية للتجلي واستمراراً للاشراق الذي هو عين الكمال . ويرقى الحال بصاحبنا فيهم بين أطلال الأوبة ويفنى في ذات محبوبه فلا يشعر إلا وهو يفديه بأبيه مرة ثانية ، ثم بنفسه ويجد حقيقة حبه بين جوانحه وأضلعه المتأججة بنار الشوق والغرام برداً وسلاماً كما كانت نار النمرود على ابراهيم . لا . بل انه لَيَجِدُها نوراً مُخمداً للنيران ، مُوجباً للسكينة والاطمئنان فيأنس ونأنس معه ، لأننا لا نملك ، وقد خاطبنا أولاً بما هو من طبيعتنا وبغزل حسي رقيق ، إلا أن نصحبه في رحلته التي انتهت بنا معه إلى هذا الجو من المعاني السامية : فإذا نحن قد أحسنا بما أحس أو ببعض ما أحس ، وأشرق باطننا بنور الايمان واليقين .

ويطول الأمر لو تتبعنا أغراضه في القطعتين الثانية والثالثة . وحالتنا عناصر شاعريته فيهما ، وإنما لا بد أن نشير إلى هذا المعنى الاشاري البارع الذي تضمنه البيت الخامس من القطعة الثانية ، وهو الذي يعالج احتجاب المحبوب بالشفقة على المحبين من بهر المكافحة^(١) الذي لا تحتملهُ بنيتهم الضعيفة وهو يرمزُ بذلك إلى قوله تعالى لِكَلِمَةٍ مَوْسَى لما سأله الرؤية : (انك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً

(١) أي المواجهة .

وآخرَ موسى صعباً) وقد مهد له بالبيت الرابع الذي لا كفاءَ له في الجمال ، فجاء متمكناً من موضعه منسجماً مع ما قبله غاية الانسجام .

كذلك نشير إلى اللوحة الشعرية الرائعة التي اشتمل عليها البيت الخامس من القطعة الثالثة ، وقد عبر عنها بصورة أخرى في البيت السابع من القطعة الأولى وعلقنا عليها بما فيه الكفاية . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من القطعة الثالثة فإنها أشهر من أن تُعرف ، وقد تُرجمت إلى كل اللغات الحية من شرقية وغربية ، وهي تدلّ على رُوح إنسانية عالية تحتضنُ سائر العوالم بالحبّ الذي لا ينضب معينه ، ولا يُمنع من ورده أحد .

وغيرُ خفيّ أن هذه الالتفاتات الروحية الجميلة التي يمتازُ بها شعر القوم تجعلُ له قيمةً يفوق بها شعر كبار الشعراء ، وترشّحه لأن يكون أدباً إنسانياً عالمياً ، وبالفعل فإن ما نُقل منه إلى اللغات الأجنبية أكثرُ مما نُقلَ من شعر الشعراء الآخرين . ولو لم يكن به من ميزة إلا هذه لكان جديراً أن ينظر إليه بعين الاجلال والاكبار ، كيف وهو في الصنعة الشعرية أيضاً لا يقصر عن شعر فحول الشعراء كما رأينا . ؟

ويذكرُنا الشيخُ محي الدين بسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ذلك الشاعر المؤلّه الذي تغنى بالحب الالهي ما

شاء الله الوله ، وتفنن في معانيه وتعمق أسرارَه حتى
صارَ علماً بين الشعراء بشعره الوجداني الرفيع ومقاصده
العليا التي يهيم بها أرباب القلوب ، وتجعلهم يحفلون بديوانه
أشدَّ الحفل ولا يعدلون به ديوان شاعر من شعراء العربية .
ولا شتهار شعره وديوانه فإننا نكتفي بنموذج واحد منه وهو
أبيات مختارة من قصيدته الجيمية الرقيقة ، قال :

ما بين مُعترك الأُخداق والمُهَجِّج
أنا القَتيلُ بلا إثمٍ ولا حرج
ودَّعتُ قبل الهوى رُوحِي لِمَا نَظَرْتُ
عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرِ الْبَهْجِ
لله أَجْفَانُ عَيْنِ فَيْكَ سَاهِرَةٌ
شَوْقاً إِلَيْكَ وَقَلْبٌ بِالْغَرَامِ شَجْجِ
لَا كَانَ وَجْدٌ بِهِ الْآمَاقُ جَامِدَةٌ
وَلَا غَرَامٌ بِهِ الْأَشْوَاقُ لَمْ تَهْجِجِ
عَذَابٌ بِمَا شَتَّ غَيْرَ الْبَعْدِ عَنْكَ تَجْدِ
أَوْفَى مُحِبٍّ بِمَا يَرْضِيكَ مُبْتَهَجِجِ
وَحُذْ بَقِيَّةَ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ رَمَقِ
لَا خَيْرَ فِي الْحُبِّ إِنْ أَبْقَى عَلَى الْمُهْجِجِ

* * *

مَنْ لِي بِإِتْلَافِ رُوحِي فِي هَوَى رَشْلِ
حُلُوِّ الشَّمَائِلِ بِالْأَنْفَاسِ مُمْتَزَجِ

مَنْ مَاتَ فِيهِ غَرَاماً عَاشَ مُرْتَقِياً
 مَا بَيْنَ أَهْلِ الْهَوَى فِي أَرْفَعِ الدَّرَجِ
 تَرَاهُ إِنْ غَابَ عَنِي كُلُّ جَارِحَةٍ
 فِي كُلِّ مَعْنَى لَطِيفٍ رَاقٍ بِهَرَجِ
 فِي نَعْمَةِ الْعُودِ وَالنَّايِ الرَّخِيمِ إِذَا
 تَأَلَّفَا بَيْنَ الْحَانِ مِنْ الْهَزَجِ
 وَفِي مَسَارِحِ غَزَلَانِ الْحَمَائِلِ ، فِي
 بَرْدِ الْأَصَائِلِ وَالْأَصْبَاحِ ، فِي الْبَلَجِ
 وَفِي مَسَاقِطِ أَنْدَاءِ الْغَمَامِ عَلَى
 بِسَاطِ نَوْرِ مِنَ الْأَزْهَارِ مُنْتَسِجِ
 وَفِي مَسَاحِبِ أَذْيَالِ النَّسِيمِ إِذَا
 أَهْدَى إِلَيَّ سُمَيْرَا أَطِيبَ الْأَرْجِ
 وَفِي التِّثَامِي ثَغَرَ الْكَاسِ مُرْتَشِفَا
 رَيْقَ الْمَدَامَةِ فِي مُسْتَرْهَ فَرَجِ

إن هذه الأبيات وحدها كافية لآظهارنا على شاعرية ابن
 الفارض ورقة معانيه ولطف تعبيره والأجواء الروحية التي
 يُحَلِّقُ فِيهَا ، فلم يَكُنْ الْقَوْمُ مُحَابِينَ لَهُ لَمَّا بَوَّأُوهُ مَكَانَ
 الصَّدَارَةِ بَيْنَ النَّاطِقِينَ بِلِسَانِهِمِ الْمَعْبَرِينَ عَنْ حَالَتِهِمْ . وَانْه
 فَوْقَ ذَلِكَ لَخَلِيقٌ أَنْ يَحْتَلَّ مَقَاماً رَفِيعاً بَيْنَ الشُّعْرَاءِ الْوَجْدَانِيِّينَ
 فِي الْأَدَبِ الْعَالَمِيِّ ، لَوْ أُتِيحَ لَشَعْرِهِ تَرْجُمَةٌ وَافِيَةٌ بِأَغْرَاضِهِ
 إِلَى اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ الْمَقْرُوءَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَعْمُورِ .

وهذا لون آخر من شعر القوم ، وهو قصيدة فريدة للشيخ
عبدالله بن القاسم الشهرزوري المنعوت بالمرتضى ، يصف
فيها رحلة له في عالم الغيب طلباً للحقيقة الربانية أولها :

لَمَعَتْ نَارُهُمْ وَقَدْ عَسْعَسَ الْإِلَه
لِ وَلَمَلَّ الْحَادِي وَحَارَ الدَّلِيلُ
فَتَأَمَّلْتُهَا وَفَكَّرِي مَنْ الْبِي—
نَ عَلِيلٍ وَلِحَظَ عَيْنِي كَلِيلُ
وَفُؤَادِي ذَاكَ الْفُؤَادَ الْمُعْنَى
وَعِرَامِي ذَاكَ الْغَرَامَ الدَّخِيلُ
ثُمَّ قَابَلْتُهَا وَقَالَتْ لَصَحْبِي
هَذِهِ النَّارُ نَارُ لَيْلِي فَمِيلُوا
فَرَمَوْا نَحْوَهَا لِحَاطًا صَحِيحًا
تِ فَعَادَتْ خَوَاسِئًا وَهِيَ حَوْلُ
وَالْقَصِيدَةُ طَوِيلَةٌ أَثْبَتَهَا ابْنُ خَلِّكَانَ بِكَامِلِهَا فِي وَفِيَاتِ
الْأَعْيَانِ وَأَثْنَى عَلَيْهَا ، وَكَذَلِكَ ، أورد هذا العاملي في الكشكول ،
ومن المهم الوقوف عليها فإنها من عيون الشعر الرمزي في
العربية .

وفي الباب شعر كثير لأبي مَدَّيْنٍ والجيلي والشَّشْتَرِي
والبَكْرِي والنَّابُلْسِي والبُرْعَمِي وابن وَفَاءٍ وحسَيْن بن عبد
الشكور والحرقاق وسواهم ، مما يطولُ المقام بتتبعه ، ولكن

لا بد أن نقدم ولو مثلاً واحداً للحرّاق باعتبار أنه مغربي .
قلّما يُعرَف شعره في المشرق مع أنّه صاحبُ ذوقٍ سليم
وصنعةٍ مُحكمة . وليكن ذلك المثال هو الرائية التي ضمّنها
قولَ المجنون :

أماطتُ عن محاسنها الحمارا
فغادرتُ العقولَ بها حيارى
وبثتُ في صميم القلب شوقاً
توقّدَ منه كلّ الجسم نارا
والقتُ فيه سرّاً ثم قالت
أرى الإفشاء منك اليومَ عارا
وهل يستطيعُ كَتَمُ السرّ صَبّاً
إذا ذكر الحبيبَ لديه طارا
به لعبَ الهوى شيئاً فشيئاً
فلم يشعرْ وقد خلّع العذارا
إلى أن صار غيباً في هواها
يُشيرُ لغيرها ولها أشارا
يُغالطُ في هواها الناس طراً
ويُلقي في عيونهم الغبارا
ويسأل عن معارفها التذاذاً
فيحسبُه الورى أن قد تَمّارا

ولو فهموا دقائقَ حب ليلي
كفاهم في صبابته اختبارا
إذا يبدو امرؤ من حَيّ ليلي
يذلّ له وينكسر انكسارا
ولولاها لما أضحى ذليلا
(يُقبَلُ ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفَن قلمي
ولكنّ حبّ من سكن الديارا)

ولعلنا أسرفنا في إيراد الأمثلة من هذا النوع من الشعر
الإشاري أو الرمزي أو الصوفي بعبارة أوضح ، وقد بقيت
في النفس حاجة من شعر الغزل والنسيب الخالص وضاق المجال
عن الزيادة فلنأتمم ببعض الأمثلة القليلة لئلا يظن أن
أصحابنا الفقهاء إنما برعوا في هذا الشعر الصوفي وليس لهم
في غيره من شعر العاطفة والوجدان كبير أثر ، مع أن ما
قدمناه في تراجم أفراد منهم كعروة بن أذينة وعبيدالله
ابن عبدالله بن عتبة بن مسعود وأحمد بن المعدّل وابن حزم
كاف لإقامة البرهان على طول باعهم ورحب ذراعهم في
هذا الباب على اتساعه . ولكن لا بد من أمثلة أخرى تتمم
ما سبق وتذكر في مظنّتها هنا ويكون بها مسك الختام للباب .

فمن ذلك قولُ القاضي أبي حنص بن عمر :

همُ لحظُوا لواحظَهَا فهاموا وتشربُ عقلَ شاربِها المُدام
يخاف الناسُ مقلَّتَهَا سواها أيدعُرُ قلبَ حامِلِها الحُسام
سما طرُفي إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكِبُ الغمام
وأذكرُ قدَّها فأنُوح شوقاً على الأغصان تتدبُّ الحَمَام
وأعقبَ بينها في الصدرِ غمّاً إذا غربت ذُكاءُ أتى الظلام

وله أيضاً :

مشتُ كالغُصْنِ يثنيه النسيمُ ويعدُّوه النسيمُ فيستقيم
لها ردفٌ تعلَّق في لطيف وذاك الردفُ لي ولها ظلُّوم
يُعذِّبني إذا فكرتُ فيه ويُتعبها إذا رامتُ تقوم
وما حيي لها إلا عذاب عليه من نضارتها نعيم

وكان هذا القاضي بارعاً في النظم والنثر ، وله في الغزل مقطعات رائعة ، ويقول ابن سعيد المغربي فيه إنه « كان على غاية من الظرف إذا أقبل شُمت رائحة الطيب منه على بُعد ، وإذا غُسلت ثيابه لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه جنة ، حتى وجد فيه أعداؤه مطعناً ورفعوا للمنصور (الموحدي) أنه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزله واشتহার مقطعاته وانهماكه في العشق ، فنقله المنصور من قضاء فاس إلى قضاء اشبيلية .

وللوزير العالم عبد المهيمَن الحضرمي السبتي هذه الأبيات
الرقية في الحنين إلى عهد وصال الأُحبة :

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِعَهْدٍ كُنْتُ آلَفُهُ
وَطِيبِ عَيْشٍ تَقْضَى كُلَّهُ كَرَمٍ
وَجِيرَةٍ كَانَ لِي أَنْسٌ يُوصلُهُمْ
وَالْأَنْسُ أَفْضَلُ مَا فِي الْوَصْلِ يُغْتَمُ
كَانُوا نَعِيمَ فَوَادِي وَالْحَيَاةِ لَهُ
فَالآنَ كُلَّ وَجُودٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ
بَانُوا فَعَادَ نَهَارِي كُلَّهُ ظُلَمًا
وَكَانَ قُرْبُهُمْ تُمَحَّى بِهِ الظُّلَمُ
فَالْعَيْنُ مِنِّي لَا تَرْقَى مَدَامِعُهَا
كَأَنَّمَا سَحَبٌ تَهْمِي وَتَنْسَجِمُ
تَبْكِي عَهْدَ وَصَالٍ مِنْهُمْ سَلَفَتْ
كَأَنَّمَا هُنَّ فِي إِنْسَانِهَا حُلُمُ
لَنْ ضَحَكْتُ سُرُورًا بِالْوَصَالِ لَقَدْ
بَكَيْتُ حُزْنًا عَلَيْهِمُ وَالْدموعُ دَمُ
هُمْ عَلَّمُونِي الْبُكَاءَ مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ
يَا لَيْتَهُمْ عَلَّمُونِي كَيْفَ أَبْتَسِمُ
وَاسْتَرْضَعُونِي لَبَانَ الْوَصْلِ مِنْ صِغَرِي
حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ رُوحِي بِمِمْ فَطِيمُوا

ولابن جابر المكناسي في المعنى :

تالله بعد أحبائي الذين مضوا
وخلّفوني رهينَ البَثِّ والحزن
ما أبصرتُ مُقلتي مِن بعدهم حسناً
ولا نظرتُ إلى شيءٍ فأعجبني

ولأبي عليّ اليُوسي ، وفيه تورية مليحة :

وعادل عن الهوى عاذل
يدعو لأمرٍ في الهوى إمر
قال اسلّهم واصبر فكم ذائق
أمرٍ في الهجر من الصبر
وزع عنان القلب عما جرى
عليه من بلّواه أو يجْري
فأيّ عذر في اتباع الصبا
قلتُ له ان الهوى (عُذري)



الشعر الفلسفي

الفلسفة بالاستعمال القديم لم تكن قاصرة على علمي النفس والأخلاق كما هي اليوم ، بل كانت تشمل سائر المعارف الانسانية من نظرية وعملية ، فتدخل فيها العلوم الطبيعية والرياضية والطب والأخلاق وعلم الجمال . وبهذا المعنى كان أرسطو يستعملها ، وكذلك علماء عصر النهضة الأولون في أوربا مثل فرنسيس بيكون وديكارت وأضرابهما . وبالطبع فإن من نتكلم عنهم من الفلاسفة الأدباء العرب إنما كانوا من هذا القبيل ، ولكننا مع ذلك لا نقدم من شعرهم إلا ما كان له صابة وثيقة بالمباحث الفلسفية بمعناها المحدود ، كمُشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك . على أن المراد هو أن تكون هذه المباحث هي مُنطلقُ التفكير الشعري لا الدخول في التفاصيل وعرض أنظار الفلاسفة في الموضوع ، فإن ذلك يؤول إلى تأليف نظم تعليمي في الفلسفة كألفية ابن مالك في النحو وأرجوزة ابن سينا في الطب ، وما أبعدَ هذا عن أغراض الشعر والشعراء .

ولعل الشاعر العربي الوحيد الذي تناول في شعره مشكلة الوجود الانساني والحقيقة العليا واختلاف المذاهب والآراء فيها وكان للتفكير الفلسفي ظل سابغ في معظم انتاجه الشعري

هو أبو العلاء المعري ، وبالرغم من ذلك فإنه لا يمكن أن يقال في شعره أنه فلسفة خالصة ، ولكنه شعر ينطلق من مَحَطِّ أنظار الفلاسفة ومجالات تفكيرهم .

وهكذا أصحابنا الفقهاء أو العلماء بلفظ أعم ، وإن كانوا فلاسفة حقيقيين ، لا يعرضون علينا في شعرهم إلا جانباً من النظر الفلسفي في ثوب من الخيال الشعري ليكون إنتاجهم عملاً أدبياً ناجحاً .

وأول من نذكره منهم الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ، فإن قصيدته العينية في النفس هي العَلَم المرفوع في هذا الباب ، ما زالت منذ قالها صاحبها تتناقلها الرواة ، وتُكْتَب عليها الشروح ، وتُخَمَس وتُشَطَّر نظماً ، وتُترجم إلى اللغات الشرقية والأوربية ، وذلك كله من الأهمية التي لها لدى الأدباء والفلاسفة على السواء ، وجوهر الموضوع فيها هو اتصال النفس بالجسد وفراقها له ، وهي عبر ذلك تطرح التساؤلات الآتية : لأي شيء كان هذا الاتصال ؟ فإن كان لغیر تحصيل الكمال فهي حكمة طواها الخالق عن إدراك الإنسان ، وإن كان لتحصيل الكمال فلم يقع الفراق قبل حصوله ؟ وهذا طبعاً بأسلوب يراوح بين التقرير والتخيل ، هو الذي أعطاها تلك الصفة الأدبية التي جعلتها من عيون الشعر الفلسفي . وما هي ذي :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاءُ ذاتُ تعزّز وتمنُّع
محبوبة عن كل مقلّة عارف
وهي التي سفّرت ولم تبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع
ألفت وما سكنت فلما واصلت
ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهداً بالحمى
ومنازلاً بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاءُ الثقل فأصبحت
بين المعالم والطلول الحضة مع
تبكي وقد ذكرت عهداً بالحمى
بمدامع تهامي ولما تُقلع
وتظل ساجدةً على الدّمّن التي
درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشركُ الكثيف وصدّها
قفص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرُب المسير من الحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدت مُحالفةً لكل مُخَلَّف
 عنها حليف التَّرب غير مشيع
 سَجَعَتْ وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرت
 ما ليس يُدرك بالعيون الهُجَع
 وغدت تُغَرِّدُ فوق ذِرْوَةِ شاهق
 والعِلْمُ يرفع كلَّ من لم يُرْفَع
 فَلَأَيَّ شَيْءٍ أَهْبِطَ مَنْ شاهق
 عالٍ إلى قَعْرِ الحضيض الأوضع
 ان كان أَهْبَطَها الالهَ لحكمة
 طُوِيَتْ على القَذِّ اللبيب الأروع
 وهبُوطها ان كان ضَرْبَةً لازب
 لتكون سامعةً بما لم تسمع
 وتَعُودَ عالمةً بكل خَفِيَّةٍ
 في العالمين فخرَقُها لم يُرْقِع
 وهي التي قطع الزمان طريقها
 حتى لقد غرَبَتْ بغير المَطْلَع
 فكأنها برق تَأَلَّقَ بالحِمَى
 ثم انطوى فكأنه لم يَلْمَع

أثبتنا هذه القصيدة بكاملها لأننا كلما أردنا الاجتزاء منها
 بقسم وجدنا أن روعتها لا تكمل إلا بالقسم الآخر ، فهي
 وحدة مترابطة بأشاراتها ورموزها لا يصح تجزئتها . ونحب

أن ينتبه القارئ إلى جمال التعبير عن النفس بالورقاء وهي الحمامة ووصفها بالتعزز والتمنع وكونها محجوبة سافرة ، وإلغائها لحراب الجسم مع تطلعها للمحل الذي هبطت منه وذكرها لعهودها بذلك الحمى المنيع ، إلى آخر ما وصفها به . وما أحسن ما وقع قوله في مدح العلم : « والعلم يرفع كل من لم يرفع » بعد ذكر المحنة التي مرت على النفس واكتسبت بها من المعرفة ما رفعها إلى الأوج . وأخيراً يتطرق الشيخ إلى مذهب التناسخ في البيت الذي قبل الآخر فينفية بتلك العبارة القاطعة مؤكداً مفهوم جواب الشرط المذكور قبله ، من أنه لا كمال في الحياة الفانية ولا رجوع إليها لتحصيله كما يقول أصحاب ذلك المذهب ، فله در ابن سينا ما أجلاه فيلسوفاً وأديباً ومؤمناً صادقاً ...

وثاني قصيدة بعد العينية ألفت بالمقاصد الفلسفية وإن لم تكن لها شهرتها هي قصيدة ابن الشبل البغدادي وهو كما في عيون الأنباء : « أبو علي الحسين بن يوسف بن شبل ، مولده ومنشأه ببغداد . وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً وأديباً بارعاً وشاعراً مجيداً . وكانت وفاته ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة . وهذه القصيدة من جيد شعره ، وهي تدل على قوة اطلاع في العلوم الحكيمية والأسرار الإلهية . وبعض الناس ينسبها إلى ابن سينا وليست له . وهذا هو في مطالعها الرائع يلقي السؤال الذي لا جواب عليه :

بِرَبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ
أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرُ أَمْ اضْطَرَارُ
مَدَارُكَ قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ
فَفِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ انْبِهَارُ
وَفِيكَ نَرَى الْفَضَاءَ وَهَلْ فُضَاءُ
سِوَى هَذَا الْفَضَاءِ بِهِ تُدَارُ

إنها مشكلة الزمن والمكان ، أو الفضاء ، التي حيرت
العقول منذ القدم وما زالت بدون حل حتى في عصرنا هذا ،
عصر الصواريخ والأقمار الصناعية التي تغزو الفضاء يومياً
بالعلم الذي جعل من هذا الفضاء ومباحثه مادة اختصاص
يعكف عليها مئات العلماء في الشرق والغرب ، فلا ينتهون
إلا إلى أبعاد سحيقة إنما هي مظهر من عظمة الكون وهندسته
العجيبة فأما عِلَّتُهُ وَسِرُّ تَكْوِينِهِ فَأَمْرٌ مَحْجَبٌ لَا سَبِيلَ إِلَى
مَعْرِفَتِهِ وَالْإِطْلَاعِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ مَا صَاغَهُ ابْنُ الشَّيْبَلِ فِي
هَذَا الْمَطْلَعِ بِلَبَاقَةٍ حِكْمِيَّةٍ وَبِرَاعَةٍ أَدْبِيَّةٍ لَا نَجْدُهُمَا إِلَّا عِنْدَ
أَمْثَالِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَدْبَاءِ .

وَيُتَابَعُ صَاحِبُنَا أَسْئَلَتَهُ الْحَائِزَةَ عَنْ مَصِيرِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ
مَفَارِقَةِ الْحَيَاةِ ، وَعَنِ الْمَجَرَّةِ وَنَهْرِهَا الْعَجِيبِ وَالشَّمْسِ
وَالنُّجُومِ وَالشَّهَبِ الضَّارِبَةِ فَيَقُولُ :

وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل
 مع الأجساد يُدْرِكُهَا البَوار
 ومَوْجُ ذِي (١) المَجْرَّةُ أم فرند
 على لُجَجِ الدروع له أوار
 وفيك الشمس رافعة شُعاء
 بأجنحة قَوادِمُها قِصار
 وطوقٌ في النجوم من الليالي
 هلالُك أم يَدٌ فيها سِوار
 وشُهْبٌ ذِي الخواطف أم ذُبَال
 عليها المَرخُ يقدح والعَفار
 وترصيعُ نجومُك أم حَبَاب
 تولف بينه اللَّجَجُ الغِزار
 تُمَدُّ رُقومها لِيلاً وتُطوي
 نهاراً مثل ما طُوِيَ الإزار
 فكم بصِقا له - صديء (٢) البرايا
 وما يصدأ لها أبداً غِرار
 ويطول بنا التعرض لما تناولته القصيدة بعد هذا من تقلب

(١) في عيون الأنباء : الذي نقل عنه : ذا .

(٢) في عيون الأنباء : صدي بدون همزة ويصدي بياء ألف .

الزمن بأهله وعكس مرادهم ، وخطيئة الانسان الأول وما
جرت به من شقاء على الإنسانية ، وان كان لا يصحّ غض الطرف
عن قولها في وصف القيامة ، وفيه ملامح من وصف القرآن
لذلك اليوم الهائل ونصه :

وإذا التكويرُ غَالَ الشمسَ عَنَا	وغالَ كواكبَ الليل انتشار
وبَدَلْنَا بهذي الأرض أرضاً	وطَوَّحَ بالسّموات انفِطار
وأذهلت المراضعُ عن بنيها	لحيرتها وعُطّات العِشار
وسيّرت الجبالُ فكنّ كُثْباً	مَهيلاتٍ وسُجّرت البحار
فأينَ ثباتُ ذي الألباب منا	وأين مع الرّجوع لنا اصطبار

وهو وصف بليغ يدل على مقدرة ابن الشبل البيانية وعلى
إيمانه العميق ، برغم ما أبداه من حيرة وأثاره من إشكال
إزاء بعض المأثورات . ثم هو يُنهي قصيدته العظيمة بقوله
في عظمة الكون والاعتبار بقدره الخالق :

فما لِسُموّ ما أعلى انتهاء	ولا لِسُموكٍ ما أرسى قرار
ولكن كل ذا التهويل فيه	ليذي الألباب وعظّ وازدجار

ولابن الشبل أيضاً قصيدة في رثاء أخيه أحمد ينبغي أن تكون
توأم قصيدة أبي العلاء المعري المشهورة في رثاء أحد فقهاء

الحنفية ، بما طرقه فيها من أفكار في فلسفة الموت والحياة مع
جودة التعبير وبلاغة الأداء ومنها قوله :

صحةُ المرء للسَّقام طريق
وطريقُ الفناء هذا البقاءُ
بالذي نغْتَذي نموتُ ونحيي
أقتلُ الداءَ للنفوسِ الدواءُ
ما لَقِينَا من غدرٍ دنيا فلا كا
نت ولا كان أخذُها والعطاء
راجعٌ جودُها عليها فمهما
يهبُ الصبحُ يسترِدُّ المساءُ
ليت شعري حُلماً تمرُّ بنا الأيامُ
— أم أم ليس تُعَقِّلُ الأشياءُ
مِنْ فسادٍ يَجْنِيهِ للعالمِ الكو
نُ فما للنفوسِ منه اتقاء
قَبَّحَ اللهُ لَذَّةَ لأذَانَا
نَالَهَا الأُمَهَاتُ والآباءُ
نَحْنُ لولا الوجودُ لم نَألمُ الفقرَ
دَ فإيجادُنا علينا بلاءُ

وهذه أبيات مشهورة في معان فلسفية مختلفة ، فمنها
للشهرستاني صاحب كتاب الملل والنحل :

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها
ورددتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر
على ذقن أو قارعاً سيناً نادم
وللفخر الرازي :

نهايةُ أقدام العقُول عقال
وأكثرُ سغى العالَمين ضلال
وأرواحنا في عُقْلة من جُسومنا
وحاصلُ دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفيد من بحثنا طولَ عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا
وكمْ قد رأينا من رجال ودولة
فبادُوا جميعاً مُسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شرفاتها
رجالٌ فزالوا والجبال جبال

ولابن أبي الحديد :

فيكَ يا أغْلُوطةَ الفكْ — ر غدا الفكرُ عليّ — لا
أنتَ حيرتَ ذوي الل — بْ وبَلَّبتَ العقُول — لا
كلّما أقبلَ فِكْري فيكَ شِبْراً فَرَّ مِي — لا
ولِبَلْمُظَفَّر بن مصرّف في الرد على الطبايعين :

وقالوا الطبيعة مبدأ الكيان
فيا لنت شعري ما ذي الطبيعة ؟
اقادرة طبعت نفسها
على ذاك أم ليس بالمستطيعه ؟

ولأبي سليمان المنطقي ، ويحتوي على نزعة وجودية مع
الاقرار بخلود الحقيقة العليا :

لذّة العيش في بهيمية الله
لذّة لا ما يقوله الفيلسوف
حكم كأس المنون أن يتساوى
في حساها الغبي والألمعي
ويحلّ البليد تحت ثرى الارض
ض كما حلّ تحتها اللودعي
أصبحت رمّة تزايل عنها
فصلها الجوهري والعرضي
وتلاشى كيانها الحيوان
ي وأودى تميزها المنطقي
فاسأل الأرض عنهما إن أزال الله
لك والمرية الجواب الخفي
بطلت تلكم الصفات جميعاً
ومحال أن يطل الأزلي

هذه نماذج من شعر أصحابنا الفقهاء العلماء في موضوع
الفلسفة وما يتَّصلُ بها من المباحث العقلية ، هي من جهة
مادة غزيرة في الأدب العربي قلّما نعثُرُ على نظير لها فيما
أنتجه غيرهم من شعر يتجافى كثيراً عن منازع الفكر
ومُشتجر الآراء في مطالب النفس وحقيقة الوجود ، وذلك
طبعاً باستثناء فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري . ومن جهة
أخرى هي أعظم دليل على قوة مَلَكَتْهم الشعرية وعارِضَتهم
الأدبية ، إذْ أخضعوا تلك الأنظار والمذاهب المختلفة لحكمهم
وعبروا عنه بعبارات دالّة وكلام واضح لم تضق عنه قوالبُ
النظم ولا عَيَّتْ به أساليبُ البيان . وذلك غايةُ ما يطلب
من أئمة الأدب وحملة الأقلام .



الأخلاق والآداب

وشعر الأخلاق والآداب أو الوصايا والحكم في أدب الفقهاء ينبوع ثرٌّ ، ومعدن غنيّ بالأعلاق النفيسة والجواهر الكريمة ، إذ كانوا هم مصدر الآداب ومُتَعَدِّدِي قواعد الأخلاق ، ما بين شرعية وسياسية . فالتشريعون منهم يستمدون من الأصليين العظمين اللذين اشتملا على أحسن الهدى ، وهما الكتابُ والسنة . والمتفلسفون يأخذون خيراً ما عند أصحاب التعاليم وعلماء الأخلاق ، ممّا يتوافق ومبادئ الدين الحنيف الذي يقول رسوله الأكرم ، صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وبذلك يكون الشعر الصادر من الفقهاء في هذا الباب هو أمثل هذا الشعر من حيث المضمون ، لاحتوائه على زُبْدَةِ ما جاءت به الشريعة وأيّدته الحكمة من قواعد السلوك ومعاملة الناس بعضهم لبعض ، وأما من حيث الشكل فهو على ما سئرى وما رأيناه في غيره ، حُسنَ بناء وإحكامَ صنعة .

ولعل خير ما نوّيد به قولنا هذا هو شعر الفخر الذي قاله فقهاؤنا رحمهم الله ، فهو يسير على وتيرةٍ غيرِ التي يسير عايتها فخرُ الشعراء الذي يستحيل في بعض الأحيان إلى بهلوانية

أدعى ما تكون إلى السخرية منها إلى الإعجاب ، وذلك
بما يتضمنه من الادعاء الفارغ والتطاول الذي لا حد له ،
في حين أن فخر العلماء ينحو منحى تهذيباً ويمثّل الاعتزاز
بالعلم والهمة العالية والخلق الكريم ، ولذلك أدخلناه في الشعر
الحكمي ولم نجعله باباً مستقلاً كما هو في شعر الشعراء غير
الفقهاء .

ولنستمع إلى ما يقوله الامام الشافعي في هذا الصدد :

عليّ ثيابٌ لو يباع جميعها
بفلّس لكان الفلّسُ منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يُقاسُ ببعضها
نفوسُ الوري كانت أجلّ وأكبرا
وما ضرَّ نصلَ السيفِ إخلاقُ غمّده
إذا كانَ عضباً حيث وجهته فَرَا

فهو يفخر بنفسه ويعتز بها ويقارنها بنفوس من يرى
من البشر المتنافسين في الدنيا المتهايكين على الأطماع ،
فترجّحُ بها وتسمو عليها ، لأنها ليست من بابتِها ولا من
واديها ، إذ بينما هذه مطلبُها الكمال وتطلّعُها إلى
معالي الأمور ، إذا بتلك إنما تستهويها المادةُ وليس لها
مطلب غيرُ الدينار والدرهم اللذين يتوصّل بهما إلى قضاء
مآربها الوضيعة والظهور بمظاهر العظمة الكاذبة من لباس

فاخر وزينة مُتناهية ؛ لم يكن للشافعي رحمه الله منها إلا ثياب بسيطة تُراد للستر لا للمباهاة بحيث لو عُرِضت للبيع في السوق لما تجاوز سومُها الفلُس الواحد من بَخْس ثَمَنِها ووَكْس قيمتها . ولكن متى كانت قيمةُ الشافعي وأمثاله فيما يلبسون أو يأكلون أو يسكنون ؟ وأين هم الآن أولئك الذين عايشوه من أهل الثراء الواسع ، والمآكل والملابس ، والدُور والقصور ، والخدم والحشم ، والرياش والأثاث ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمعُ لهم رِكْزاً ؟

إنها ملايينُ النفوس وأعدادُ الذرِّ من الناس ، لا نعرف لهم اسماً ولا نقف منهم على أثر ، تمتعوا بزينة الحياة الدنيا وكانت هي غاية مرادهم ، فذهبوا ولم يتحدث عنهم رائح ولا غاد ، والشافعي في ثيابه الرخيصة ونفسه الغالية ، ما يزالُ على مرِّ العصور وتعاقبِ الأجيال ، خالداً الذكر ، عليَ القدر ، مِلءَ سَمْعِ الدنيا وبَصْرِها .

فهذا فخر يقترنُ بالتوجيه ويُوحي بمعانٍ من السمو والعظمة لا يعرفها إلاَّ أهل العلم ولذلك جعلناه من أمثلة شعر الأخلاق والآداب .

ومن شعرهم السائر الذي بلغ الغاية في الاعتزاز بالعلم وترَفَّع حمليته عن الابتذال ، قولُ القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجُرْجاني صاحب كتاب الوَسْاطة بين

المتنبي وخصومه :

يقولون لي فيك انقباضٌ وانمسا
رأوا رجلا عن موقف الذل احجمما
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قد أرى
ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحمِلُ الظَّما
ولم أقضِ حقَّ العلم إن كان كلَّما
بدأ مطمَعٌ صيرتُه لي سلَّما
ولم أبتدِلْ في خدمة العلم مُهْجِي
لأخدُم من لاقيتُ لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلَّةً
إذنَّ فاتِّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهلَ العلم صانَّوه صانَّهم
ولو عظَّموه في النفوس لعظَّما
ولكن أهانَّوه فهانُّوا ودنَّسوا
مُحيَّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

تُمثِّل هذه الأبيات قِمة شعر الفخر في أدب الفقهاء
سواء من حيث المعنى أو الأسلوب ، فهي تعبر بأحسن عبارة
عن أعماق المشاعر التي يُحسِّس بها من أكرمهم الله بالعلم
فأغناهم عن كل مطلب سواه ، وصاروا بحيث لا يُغريهم

المال ولا يَغُرُّهُمْ الْمَنَصِبُ ، لأن الأجواء التي يخلقون فيها
تتكشف لهم عن عوالم في منتهى الروعة والجمال ، تملأ
نفوسهم غبطة وسروراً ، وتغمر قلوبهم رضاء وطُمأنينة .
فما المال وما المنصب بإزاء السعادة التي يجدونها في الانقطاع
إلى العلم وحياته الهنية ؟ !

والناس يروْن عزوفهم عن تجمعاتهم اللاهية وعدم
خَوْضِهِم فيما يخوض فيه غيرهم من الأباطيل ، فيصفونهم
بالانقباض والشدوذ ، والحال أن وقار العلماء يمنعهم من
التزول إلى حضيض الابتذال ، فإذا كان غيرهم من ذوي
السلطة والنفوذ يتصنع ويتكلف للمهابة والتوقر ، فإن سَمَتَ
العلم قد أحاطهم بهالة من التعظيم والاحترام تنحسر عنها
الأبصار . وإذا كان هذا شأن العلماء الحقيقيين ، فإن غيرهم
من المدَّعين لا نصيب لهم من هذا الشرف ، لأنهم لم يصُونوا
العلم ولم يعظّموه ، ورَضُوا أن يكونوا مَطِيَّةً
للجبايرة وأعواناً للمتسلطين لقاء ما ينالونه من فُتات
موائدهم ، فهم قد حرّموا لذة العلم وحرّموا معها عزّته ،
وهؤلاء هم الذين يعنيهـم القاضي الجرجاني في البيتين الأخيرين
من القطعة . اللذين هما مغزى فخره ، وصرّح به ليكون
أبلغ في التوجيه والايحاء .

ومن هذا المعنى قول أبي الحسن النعماني البصري أحد
مشيخة القرن الخامس :

إذا أعطشتك أكفّ اللثام كفتك القناعة شبعاً ورياً
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة هيمته في الثرى
أياً بنفسك عن باخل تراه بما في يديه أياً
فإنّ اراقة ماء الحيا ة دون اراقة ماء المحيا

وهي أبيات قليلة النظير في الحض على علو الهمة وشرف النفس وعدم التشوف لما في يد الغير وصيانة ماء الوجه من أن تكدره أو تستنزفه الحاجات والأطماع ، ولعل شاعراً غير فقيه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الأبيات في بلاغة معناها وجزالة مبناها لأن رصيد الشعر مليء بالسؤال والرجاء والأمل ، فلا يتفلت من يكون هو رأس ماله من تأثيره فيه والإنفاق منه إذا اضطرّ إلى ذلك ، بخلاف الفقيه الذي يعرف حكم الشريعة في السؤال ويروي قول الرسول (ص) : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقوله : « لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يبعث يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم » فإنه يستقي من ماء غير آسن ، وإذا قال شعراً في وجوب الاحتفاظ بالكرامة الشخصية فلا يكون إلا هكذا .

وحكى السبكي في الطبقات، أن البرقاني كان يقول في صاحبنا النعمي : « هو كامل في كل شيء لولا بأو فيه » ونحن نقول حبذا البأو الذي يُملي على صاحبه هذه الأبيات الرائعة ...

ومن شعر عبد المهيمن الحضرمي وهو من شيوخ ابن خلدون
وكان كاتب العلامة للسلطان أبي الحسن المريني قوله ، وفيه
لُزومٌ ما لا يلزَم :

أبتُ همي أن يراني امرؤ
على الدهر يوماً له ذا خُنوع
وما ذاك إلا لاني اتَّقَيْتُ
بعزّ القنائة ذُلَّ القُنُوع

القُنُوع السؤال ، ومما حَبَّبَ لنا روايةَ هذين البيتين هنا
أن صاحبهما كان في حياته العَمَلِيَّة عند قوله هذا ، ولم يكن
مُتَبَجِّحاً بكلام لا ظل له من الحقيقة كما هي عادة الشعراء
غالباً (ألمْ تَرَ أنهم في كلِّ وادٍ يَهَيِّمون وأنهم يقولون
ما لا يفعلون) فقد حَدَّثَ أن السلطان أبا الحسن المريني
الشهير أغلَظَ له القول ذات يوم ، وهو يَلِي كِتَابَةَ علامته ،
فأخذ عبد المهيمن القلمَ وكسره أمام السلطان وقال : « هذا
الجامعُ بيني وبينك » وقام مغاضباً له ، فخجل السلطان
ونَدِمَ على ما صدر منه وترضاه وأفضَلَ عليه .

وهكذا صدقَ فعله قوله وطابقَ سلوكه فخره ، وتلك
هي أخلاق العلماء ...

ونَعْرِضُ للشعر المخصوص بالوصايا والحِكَم مكتفين

بهذا القدر من شعر الفخر ، وللشافعي في الباب أبياتٌ عامرة
منها قوله في الاخوان :

أحبّ من الاخوان كلّ مُواتٍ
وكلّ غَضِيضٍ الطرف عن عِشْرَتِي
يُوافِقُنِي في كلّ أمر أريدُه
ويَحْفَظُنِي حيّاً وبعدَ ممّاتي
فمَنْ لي بهذا ليت أَنِي أَصَبْتُه
فَقَاسَمْتُه ما لي من الحَسَنَاتِ
تَصَفَّحْتُ اخواني فَكان أَقلَّهم
على كثرةِ الاخوان أَهلُ ثِقَاتِي
ومنها في النصيح العام :

دَعِ الأَيامَ تَفْعَلْ ما تَشاءُ
وَطِيبْ نَفْساً بِما حَكَمَ القَضَاءُ
ولا تَجْزَعْ لِحَادِثَةِ اللَّيَالِي
فما لِحَوَادِثِ الدُّنْيَا بَقَاءُ
وكنْ "رجلاً" على الأهوالِ جَلْداً
وَشِيْمَتُكَ السَّماحَةُ والسَّخاءُ
ولا حَزَنٌ يَدُومُ ولا سُرُورٌ
ولا بَرٌّ "س" عَلَيْكَ ولا رِضاءُ

ورزقك ليس ينقصه الثاني
وليس يزيد في الرزق العناء
إذا ما كنتَ ذا قلب قنُوع
فأنت ومالكُ الدنيا سواء
ومنها في الحث على السفر :

ما في المقام لذي عقل وذو أدب
من راحةٍ فـدع الأوطانَ واغترِب
سافر تجدُ عِوضاً عمَّن تُفـارقه
وانصبُ فان لذيد العيش في النَّصب
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسدُه
أن سار طاب وان لم يسر لم يطب
والاسدُ لولا فِراقُ الغاب ما افترست
والسَّهمُ لولا فِراقُ القوس لم يُصب
والتبرُ كالتربِ ملقًى في أماكنه
والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطاب
فإن تغربَ هذا عزَّ مطلبُـه
وان تغربَ ذاك اعتزَّ كالذهب
إن هذه القطع من شعر الشافعي أشهرُ من أن تُعرفَ فهي

تجري على كل لسان ، وذلك لسهولة وسلامة منطقتها ،
فالناس يتمثلون بها في كل مناسبة ، وتلامذة المدارس
يستظفرونها لأنها مما يُلَقَّنونه في محفوظاتهم ، ولذلك اقتصرنا
عليها وإلاّ فإن الأمر كما قال في الطبقات الكبرى « ولا معنى
للاكتثار من ذكر شعر الشافعي رضي الله عنه وهو شيء قد
طبّق الأرض » .

ومن شعر أحمد بن المعدّل السائر مسرى الأمثال :

ولستُ بنظّارٍ إلى جانب الغني
إذا كانت العلياء في جانب الفقر

واني لذوّ صبرٍ على ما ينوبني
وحسبُك أن الله أثنى على الصبر

ومن شعر عبد الرحمن بن القاسم صاحب الامام مالك ،
وقد شدّ الرحلة إلى لقاء الامام بالمدينة من بلّده مصر ،
وهو كثير الانشاد بين أهل العلم :

أقولُ وزممتُ للرحيل ركائي
أعدّي ليفقدني ما استطعت من الصبر

أليسَ من الحُسران أن لياليها
تمرّ بلا نفع وتحسب من عمري

ومقطعات العلماء في غَرَضِ الأدب والحكمة كثيرة بل
ان منهم من لم يكن ينظم الشعر إلا في هذا الغرض كمنصور
الفقيه وقد ترجمنا له وذكرنا نماذج من شعره . ومحمود
الورّاق وهو ممّن أكثر وأطاب في هذا الباب وكان من أهل
العلم والرواية ، أخذ عنه ابنُ أبي الدنيا ، وتوفي في خلافة
المعتصم ، وإحسانه وشرف مترّعه يكاد لا يخلو ديوان من
دواوين الأدب من إنشاد مقطعاته الجميلة ، ونحن لمُوافقة
المقصد نورد منها بعض العيون تقديراً لِعَمَلِهِ الأدبي الجليل
وإشاعةً لِنُصْحِهِ الخالص المثل .

فمن ذلك قوله في التحذير من التتايُع في الذنوب :

يا ناظراً يرئو بعيني راقداً
ومُشَاهِدٍ للأمر غير مُشَاهِد
تَصِلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجي
دَرَكَ الحِنَانِ بها وفوزَ العابد
ونَسِيتَ أن الله أخرج آدمَ
منها إلى الدنيا بذَنْبٍ واحد

وقوله وهو من الأمثال السائرة :

تعصي الالهَ وأنت تُظهر حُبّه
هذا لعُمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته
ان المُحِبَّ لمن يُحبّ مُطيع

وقوله في مداراة الأصدقاء :

دارِ الصديق إذا استشاط تغضباً
فالغيطُ يُخرج كامينَ الأحقاد
ولربّما كان التغضبُ باعثاً
لِمِثَالِ الآباءِ والأجداد

وقوله في معنى كاد الفقر أن يكون كفراً :

لبيستُ صُروفَ الدهرِ كهلاً وناشئاً
وجرّبتُ حالِيه على العُسرِ واليُسْرِ
فلم أرَ بعد الدّينِ خيراً من الغني
ولم أرَ بعد الكُفْرِ شراً من الفَقْرِ

وقوله في معنى انما الأعمال بالخواتم :

أنصافُ على المُحسينِ المتقي
وأرجوُ لذي الهفواتِ المُسي
فإليك خوفي على مُحسينِ
فكيف على الظالمِ المُعتدي

على أن ذا الزَّيْغ قد يستفيق
ويسأنِفُ الزَّيْغَ قلبُ التَّقي

وقوله في الحَض على الانفاق :

تمتَّع بِمَالِكَ قَبْلَ المَمَاتِ
وإِلَّا فلا مالَ ان أنتَ متَّما
شقيتَ به ثم خَلَفْتَهُ
لغيرك بُعداً وسُحقاً ومَقْتاً
فجادُوا عليك بزُورِ البكاءِ
وجَدْتَ عليهم بما قد جمَعْتَا
وأرْهَنتَهُم كلَّ ما في يديكَ
وخلَّوْكَ رَهْنًا بما قد كَسَبْتَا

وقوله في عدم عيب الفقر :

يا عَائِبَ الفقرِ أما تَزْدَجِرُ
عَيْبُ الغني أَكْثَرُ لو تَعْتَبِرُ
مِنْ شَرَفِ الفقرِ وَمِنْ فَضْلِهِ
على الغني لو صَحَّ مِنْكَ النَظَرُ
أَنْكَ تَعْصِي كِي تَنالَ الغني
ولستَ تَعْصِي اللهَ كِي تَفْتَقِرَ

وبعد هذه النبذة من شعر الشيخ محمود الوراق نتعرض
لِلتَّوْنِ آخر من شعر أصحابنا الفقهاء في المواعظ والنصائح، وهو
مَا يوجهونه إلى أبنائهم خاصة وإن كان مضمونه عاماً يصلح
للجميع . ان هذا البحث يجب أن يأخذ بأطراف الموضوع
وان لم يستوعبه كل الاستيعاب فمن الضروري أن نُلِمَّ
بهذا النوع من الشعر الحكيم أيضاً .

فمما اخترناه منه قولُ يَمُوتُ بن المَزَرَءِ النحوي الأديب
الراوي المشهور ، ابنِ أخت أبي عثمان الجاحظ ، يُوصي
ولده المُهلِلَ :

مُهَلِّلُ قَدْ شَرِبْتُ شُطُورَ دَهْرِي (١)
وكافحني به الزمَنُ العَنُوتُ
وجاريتُ الرجالَ بكلِّ رَبَّعٍ
فأذعن لي الحُثَالَةُ والرَّتُوتُ (٢)
فأوجعُ ما أَجُنَّ عليه قلبي
كريمٌ عَضُّهُ زَمَنٌ بَغُوتُ
كفى حزنًا بِضِيْعَةٍ ذي قَدِيمٍ
وأبناءُ الطريفِ لها التَّخُوتُ
وقد أسهرتُ عيني بعد غَمَضٍ
مخافةً أن تَضِيعَ إذا فَنِيَتْ

(١) أي جربته وعرفته . (٢) الرؤساء .

وفي لطف المهيمن لي عزاء
بمثلك ان فنيت وإن بقيت
وإن يشتدَّ عظمك بعد موتي
فلا تقطعك جائحة سبوت (١)
فجُب في الأرض وابغ بها علوما
ولا تَلَفِتْكَ عن هذا الدسوت
وان بخِلَ العليم عليك يوماً
فذلَّ له ودَيْدُنُكَ السكوت
وقل بالعلم كان أبي جواداً
يُقال فَمَنْ أبوك فقل يَمُوت
تُقِرَّ لك الأبا عِدُّ والأداني
بِعِلْمٍ ليس يحده البهوت

ومنه قول الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي
ينصح ابنه أو ابن أخيه على ما قيل :

أبا بكر دعوتك لو أجبتا
إلى ما فيه حظك ان عقلنا
إلى عِلْمٍ تكون به إماما
مُطاعاً ان أمرت وان نهيتا
ويحلُّو ما بعينك من عشاها
ويهديك السبيل إذا ضللتنا

(١) قاطعة .

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَيًّا
وَيَبْقَى ذُخْرُهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْتَ
وَتَحْمِلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا
وَيَكْسُوكَ الْجَمِيلُ إِذَا اعْتَرَيْتَا
هُوَ الْعَضْبُ الْمُهَنْدُ لَيْسَ يَنْبُو
تُصِيبُ بِهِ الْمَقَاتِلُ إِنْ ضَرَبْتَا
وَكُنْتُ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لَصًّا
خَفِيفَ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا
يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ
وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًّا شَدَدْتَا

إلى أن يقول :

وَأَنْ أُوتِيَ فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ
وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا
فَلَا تَأْمَنُ سَوَالُ اللَّهِ عَنْهُ
بِتَوْبِيخٍ : عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا ؟
فِرَاسُ الْمَالِ تَقْوَى اللَّهِ مِنْهَا
وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأْسَتَا
وَأَحْسَنُ ثَوْبِكَ الْإِحْسَانُ لَا أَنْ
تُرَى ثَوْبَ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا

إذا ما لم يُفدِكَ العلمُ خيراً
فخيرٌ منه أن لو قد جهلنا

وان ألقاك فهمك في مهـاوٍ
فليتكَ ثم ليتكَ ما فهمنا

وهي قصيدة طويلة نجتزئ منها بهذا القدر . ونلاحظ
أنها مع وصية يموت بن المزرع تعتبر عن أبوة حانية واهتمام
شديد بمستقبل الولد الناشئ ، وحرص على حيازة جميع الخير
له وجعل طلب العلم هو أول ما يهتم به الناشئ ، ولعل
ذلك مما تمتاز به عن نصائح الشعراء لأولادهم ، فإن العلم
في الاسلام من أهم الواجبات ، ولذا يأخذ به المشايخ أولادهم .
وذلك إلى ما تركّز عليه النصيح من تقوى الله والعدل بالعلم
وعدم الافتتان بالدنيا . وقد خلاصت هذه الروح إلى عصرنا
هذا فتأثر بها كل من قال شعراً في وصية ابنه من أهل العلم
كالمرحوم عبدالله باشا فكري في أبياته المشهورة :

إذا نامَ غِرَ في دُجَى الليل فاستهـرِ
وقمٌ للمعالي والعوالي وشتمـرِ

وأخيراً نُؤمّيُ إلى مُطوّلات أصحابنا النُفُها الأُدباء
في الوصايا والحِكم ، التي ضاهَوْا بها أحسنَ مُطوّلات
الشعراء وفاقَوْها بما مزَجوا به نصائحهم من مبادئ التربية
العالية التي تحرّصُ على تهذيب النفوس وإحياء الضمائر وفتح

القلوب الغُلْف لما جاءَ به الإسلام من خيرٍ وبرٍّ وإحسان .
وفي طليعة هذه المطوّلات نُونيةُ أبي الفتح البُسْتِي الرائعة
التي لا كِفَاءَ لها في الحسن والجمال ، فقد جمعت إلى
النصائح الغالية والآداب الرفيعة مِتَانَةَ الأسلوب والتفنّن
في الأداء مما يجعلها فريدة في بابها . وكان البُسْتِي من مشائخ
العلم والرواية فضلاً عن رسوخ قدمه في الأدب ، سمع الكثير
من ابن حبان وروى عنه الحاكم وغيره وكان صديقاً لأبي
سُلَيْمَانَ الحَطَّابِي الذي سبقت ترجمته .

ونحن لا نَرَوِي مُطَوَّلَةَ أبي الفتح كلّها لاشتهارها وعدم
خُلُوءِ أي ديوان أدبي منها ، ولكنّا نحب أن نضع اصبع
القارئ على أبيات منها تُثَبِّت ما قلناه صدرَ هذا البحث
فيما يمتاز به شعرُ الفقهاء الحِكَمِيِّ من كونه يحوي زُبْدَةَ
الآداب والأخلاق التي أتى بها الشرع وحسّنها العقل ، وإن
كان جميعُ ما قدمناه من كلامهم يدور في هذا الفلك .
فمنها المطلع الذي يقول فيه :

زيادةُ المرء في دنياه نقصان
وربّحه غيرَ مُحْضِرِ الخيرِ خُسْران
وكلّ وجدانٍ حظّ لا ثباتَ له
فإن معناه في التحقيق فُقْدان

إنّ التزهد في الدنيا من مقاصد الدّين ، أيّ دينٍ كان ،
ولكنّ عَرْضَه في شكلٍ عَمَلِيَّةٍ حَسَابِيَّةٍ كهذه الصّورة

التي قدّمها لنا البستي في مطلع مُطولته هو من نتائج الفكر
الفلسفي ، وبذلك يكون مزج بين التعاليم الشرعية والوضعية
ليُخرج هذا المطلع البارِع .

ويتمادى صاحبنا في مزج الحكم الفلسفية بالنصائح الدينية
فيقول :

يا خادِمَ الجسمِ كم تشقى بخادِمته
وتطلّبُ الربحَ فيما هوَ خُسْران
أقبلُ على النفسِ فاستكملْ فضائلها
فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسان

ويأتي بعد ذلك بجملة من الآيات تتضمن حكماً عملية
في السلوك والأخلاق يبتدئها بقوله مَنْ يفعل كذا يلق كذا
فتذكرنا أبياته هذه بنظيرتها في مُعلقة زهير الذي
حكمَ له عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه بأنه أشعر الناس ،
لتلك الآيات التي يقول فيها وَمَنْ وَمَنْ . وكنا حريتين
أن نعقدَ مقارنةً بين أبيات زهير وأبيات صاحبنا لولا
مراعاةُ الأدب اللازم لمقام الخليفة الثاني وحُكمه .

ثم يقولُ البُستي جامعاً بين قولهم رأسُ الحكمة مخافةُ
الله والآية الكريمة : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَاذٌ)
استغنى (في بيت واحد مُحكم البناء حسن التصوير :

هما رَضِيما لِبَانِ حِكْمَةٍ وَتَقَى
وَسَاكِنَا وَطَنٍ مَالٍ وَطُغْيَانٍ

وَيُلَمَّحُ إِلَى الْوَصِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَهِيَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ فَيَقُولُ فِي
إِيحَاءِ جَمِيلٍ :

يَا أَيْتَهَا الْعَالَمُ الْمَرَضِيَّ سِرُّهُ
أَبْشِرْ فَأَنْتَ بَغِيرَ الْمَاءِ رِيَّانُ
وَيَا أَخَا الْجَهْلِ لَوْ أُمْسَيْتَ فِي لُجَجٍ
فَأَنْتَ مَا بَيْنَهَا لَا شَكَّ ظُمَّانُ
وَيُخْتَمُ بِهَذَا الْبَيْتِ الْفَذَّ الْجَامِعُ :

وَكُلَّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ
وَمَا لِكَسْرٍ قَنَاءَ الدِّينِ جَبْرَانُ

وَهُنَاكَ مَطْوَلَةٌ ثَانِيَةٌ سَارَتْ كُلُّ مَسَارٍ وَاشْتَهَرَتْ أَيَّ اشْتِهَارٍ
وَهِيَ لِأَحَدِ أَدْبَاءِ الْفُقَهَاءِ أَيْضاً نَعْنِي بِهِ الْقَاضِي عُمَرَ بْنَ
الْوَرْدِيِّ ، وَتُعْرَفُ بِلَامِيَّةِ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَوْ بِأَوَّلِ كَلِمَةٍ مِنْهَا
وَهِيَ (إِعْتَزَلْ) لِأَنَّهَا تَبْدَأُ هَكَذَا :

إِعْتَزَلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلِ
وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبُ مِنْ هَزَلِ

وَيُغْلِبُ عَلَى هَذِهِ الْمَطْوَلَةِ طَابَعُ الْحِكْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُطَعَّمَةِ

بتعاليم الدين ، فهي بعد هذا المطلع الذي يُبين عن نظرة
فقهية إلى الغِناء وما يليه ، تُوكِّدُ على الإعراض عن
حياة اللهو والمجون وتُحذّر من الاستهتار في الهوى والتصايب ،
وان كان قد لُوْحِظَ على ابن الوردي أنه في بعض أبيات
هذا القسم يُعَدّ مُغَرِّباً ببعض ما حذّر منه أكثر منه مُحذِّراً ،
ثم تنهَجُ المطولةُ نهجَ الحكمة العربية في الاعتبار بالماضين
واتيان الموت على الأولين والآخرين :

كُتِبَ الموتُ على الخَلْقِ فكم
فلَّ من جيش وأفنى من دُول

أين نمرودُ وكنعانُ ومَن
ملك الأرض وولّى وعزّل

وتُعرّج بعد ذلك على الوصية بطلب العلم والتفنن فيه
والاشتغال بالأدب وعدم ابتذاله وتقول :

أنا لا أختارُ تقبيلَ يَدِ
قطْعُها أجملُ من تلك القُبُل

مُلْكُ كِسرى تغني عنه كِسرةُ
وعن البَحْرِ اجتِزَاءُ بالوشَل

ثم تُنبِّهُ على سخافة الافتخار بالأصل والفصل في هذه
الآيات المعبرة :

لا تقل أصلي وفضلي أبداً
انما أصل الفتي ما قد حصل

قد يسودُ المرءُ من غير أب
وبِحُسْنِ السَّبكِ قد يُنفَى الزَّغْلُ

قيمةُ الإنسان ما يحسنه
أكثرَ الإنسان منه أو أقل

ثم تُشيرُ إلى مسؤولية الحكم وتُنْفَر منه بهذين البيتين السائرين:

لا تَلِ الحُكْمَ وان هم سألوا
رغبةً فيكَ وخاليفٌ من عدل

إن نصفَ الناس أعداءٌ لمن
وَلِيَ الأحكامَ هذا إن عدل

وبعد وصايا أخرى عامة يختمُ ابنُ الوردي مطولته
بهذه الأبيات متحدثاً عن شخصه :

أيّها العائبُ قولي عبثاً
إن طيبَ الورد مُودٍ بالجعَل

عدّ عن أسهم لفظي واشتمل
لا يُصيّنَكَ سهمٌ من ثعل

لا يغرّثكَ لِيَنّ من فتي
إن لِلحَيّاتِ لِيَنّا يُعْتَزَل

أنا كالحيرُوزِ صعبُ كسرُهُ
وهو لدنٌ كيفما شئتَ انقتل
غيرَ أني في زمانٍ مَن يَكُنْ
فيه ذا مالٍ هوَ المولى الأجل
واجبٌ عندَ الورى إكرامُهُ
وقليلُ المالِ فيهم يُستقل
كلَ أهلِ العصرِ غُمُرٌ وأنا
منهمُ فاتركُ تفاصيلَ الجُمَلِ

وهذا حُكْمُ خطيرٍ واعترافٍ أخطرُ منه . ونُشيرُ إلى أن
لامية ابن الوردي بالخصوص تُعطي صورةَ غيرِ مُرضيةٍ
عن عصره ومجتمعه ، وبما أن هذا الجانب منها لا يهَمُّنا
فإننا لم نتعرض له .

ومُجمَلُ القولِ فإن ما أوردناه في هذا الباب من شعر
الفخر وشعر الآداب والأخلاق كله مما يشهد لأصحابنا
الفقهاء بقوة العارضة في الأدب ورسوخ الملكة في الشعر
ويجعلهم يقفون في صفِّ كبار الأدباء والشعراء من غير طَبَقَتِهِمْ
ولا يترك مجالاً لانتقادٍ يُمَيِّزُ كلامهم من كلام عامة أهل
الأدب وقالةِ الشعرِ إلا انتقاداً مُغرِضاً لا نَصْفَةً فيه .

المدح

لا يمدحُ الفقهاءُ رغبةً في المال ، ولا يتعرضون للأمراء
قصداً الحصول على جوائزهم فإن ذلك شأن الشعراء الذين
ابتذلوا الشعر بالتكسب به ، بعد أن كان عزيزاً رفيعاً . أما
الفقهاء فإنهم احتفظوا للشعر بمكانته العالية ولم يغضوا من
قالتيه الذين يُنمّون إلى طبقتهم ، لاعتزازهم بالعلم
وترفعهم عن السؤال ، ولقد كانوا هم الذين سجلوا هذه
الانتكاسة التي وقع فيها الشعر ، منذ عهد النابغة والأعشى ،
كما نرى ذلك في كتاب العُمدة وغيره من دواوين الأدب .
فليس غريباً أن نرى عكس القضية بالنسبة إليهم ، أي أن
يمدح الأمرأُ الفقهاء . فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور يقول
في عمرو بن عبّيد وقد بّهره علمه وزهده :

كلّكم يمشي رُوَيْدٌ كلّكم يطْلُبُ صَيْدٌ
غيرَ عمرو بن عبّيد

ولما مات رثاه ، بأبيات من نظمه^(١) ، ولم يُسمع بخليفة
رثى من دونه سواه .

وأصفقت كلمةُ الفقهاء على ذمّ من خالف هذا السلوك ،
وتعلّق بأذيال الملوك ، حتّى قال أبو القاسم الشاطبي منهم :
قُلْ لِلأَمِيرِ مَقَالَةٌ من عالِمِ فِظْنِ نَبِيهِ
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

(١) انظر ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٥ .

وهم يصدرُونَ في ذلك عن مبدأ استقلال القضاء ، إذ كانوا هم أهلُه ومتولّيه ، وعن مبدأ حرية الفكر ، إذ كان لهم حق الرقابة على سياسة الدولة بِمُوجب تصدّيهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمهمتهم لا تتلاقى بحال مع مداخلَة الأُمراء ومدحهم وإسلاس القياد لهم ، ولذلك كانوا يَشْتَبِهون بالفرد منهم إذا خَرَقَ هذا الناموس ولم يحافظ على وقار العلم وجلاله . وكان العامة معهم على هذا الرأي ، فهم لا يُكَبِّرون قدرَ العالم إذا كان يحشُر نفسه في حاشية السلطان ، لأن ذلك مدعاة لموافقته على هواه ، والأمرُ بكل اعتبار لا يعدو ما فطِنَ له الغربيون أخيراً ولم يحصلوا عليه إلا ببذل التضحيات الجسيمة ، وهو حماية القانون والتعبير عن الرأي بفصل السلطات والحصانة النيابية وما إلى ذلك .

وأكثر ما يمدح الفقهاء تقرّظاً لزُملائهم من أهل العلم والدين ، وتمجيداً للرسول (ص) وثناءً على الله عز وجل . ولا يعني هذا أن أحداً منهم لم يمدح أميراً ولا ذا سلطان قط ، فلكل قاعدة شذوذ . وقد كان هناك من العلماء مَنْ مدحوا الملوك والخلفاء ، إلا أنهم قِلّة ، ومع ذلك فهم لم يستهتروا في هذا الأمر استهتار غيرهم من الشعراء ، ولم يتخذوه حِرْفة . وكانوا لا يمدحون إلا مَنْ يستحق المدح ، ويُلَاحِظُ أن مدحهم يُبَيِّنُ مدح الشعراء في الغالب . فابنُ دُرَيْدٍ لما مدح ابني مَيْكَل بمقصورته الشهيرة لم يجعلها مدحاً مُجرّداً

على الطريقة التقليدية ، وإنما نظمها سِمَطَ لآلَاءٍ وَعِقْدَ
جواهر ، فجاءت تحفة نفيسة تزهر بما تضمنته من فنون
الأدب وعيون الحكم وصار المدح أهْوَنَ أغراضها حتى انه
لا أحد يطلبها لأجله . وقد تركها سُنَّةٌ تبعه عليها حازِمٌ
القرطاجي حين نظم مقصورته المعروفة في المستنصر الحفصي
سلطان تونس .

ومع ذلك جاء العلامة النحوي أبو زيد المكودي فنظم
مقصورته في مدح النبي (ص) ولم يَسَعَهُ إلا أن يُنَكِّتَ
على سَلَفَيْهِ هذين لمدحهما غير من يستحق المدح في نظره ،
فقال في آخرها :

مقصورةٌ لكنها مقصورة

على امتداح المصطفى خير الورى
ما شَبَّهْتُها بمدح خلق غيره
لرُتْبَةٍ أَحْظَى بها ولا جَدَى
فَقْتُ عِلَاءَ كُلِّ ذي مقصورة
وان هم نالوا الأيادي واللى
فحازِمٌ قد عدَّ غيرَ حازم
وابنُ دريْدٍ لم يُفِده ما درى (١)

ومن قصائد المدح التي على هذا الغرار داليةُ أبي علي
الحسن اليوسي في شيخه أبي عبدالله محمد بن ناصر الدرعي

(١) نشرنا مقصورة المكودي مع شرح مختصر عليها منذ سنين بمصر
باهتمام المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد .

الشهير ، انها قصيدة عامرة الأبيات ، جمعت من فنون الأدب
الشيء الكثير ، كالنسيب والأمثال والحكم والوصف والمدح
والتهنئة ، إلى شرح المملكة الانسانية وآداب السلوك ومنازل
السائرين من فلسفة التصوف ، وكل ذلك في نفَس عال ولغة
متينة ، وأسلوب بديع ، وهي تقع في ٥٤٠ بيتاً ، ولا يوجد
فيها رَوِيٌّ مُكْرَّرٌ ، ولا ضرورة تُستنكر . ومن محاسنها
كما قال صاحبها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء
من بكاء منازل الأحباب والأثر ، على التحقيق لا على مجرد
الفرض كما هو حال معظم المُحدَثين .

وهذا مطلعها :

عَرَجَ بِمَنْعَرَجِ الْهِيْضَابِ الْوُرْدِ
بَيْنَ اللَّصَابِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْارْمَدِ
وَأَجِزٌ مِنَ الْجَزَعِ الَّذِي بَحْضِيضُهُ
أَجْدَاثُ أَصْدَاءِ الْعَشِيرِ الْهُمْدِ
وَارْبَعٌ عَلَى الرَّبْعِ الْمُحِيلِ هَنِيئَةٌ
أَنْ الرُّبُوعَ رُبْعُ قَلْبِ الْأَكْمَدِ
وَقِفِ الْمَطْيَى عَلَى دِيَارِ أَحِبَّةٍ
كَانُوا الْغِيَاثَ مِنَ الزَّمَانِ الْأَنْكَدِ

ومن مدحها قوله :

غَيْثُ الْوَرَى الشَّيْخُ ابْنُ نَاصِرِ الَّذِي
نَصَرَ الْإِلَهَ بِهِ شَرِيعَةَ أَحْمَدَ
وَأَعَادَ وَجْهَ الدِّينِ أَبْيَضَ مَسْفَرًا
بَهْجًا مُقْرَأَ عَيْنِ كُلِّ مُوَحِّدٍ
وَأَقَامَ سَمَكَ بَنَائِهِ حَتَّى سَمَا
فَوْقَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَوَاسِي الْوُطْدَ
وَأَزَاحَ عَنْهُ كُلَّ حِنْدَسٍ شُبْهَةٍ
وَضَلَالَةٍ وَغَوَايَةٍ وَتَشَدَّدَ
وَمِنْهُ وَفِيهِ وَصَفُ الرُّضْعِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالِدِينِيِّ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ
عَلَى ذَلِكَ الْعَهْدِ :

وَأَفِيتَ وَالْبَدْعُ الْحَوَادِثُ قَدْ وَفَتْ
ظُلُمَاتُهَا ، وَالْجَهْلُ وَارِي الْأَزْنُدَ
وَالدِّينُ مَطْمُوسُ الْمَعَالِمِ وَالْهُدَى
بَيَّضُ الْأَنْثُوقِ وَلُقْطَةُ لَمْ تُنْشَدَ
وَالسَّنَةُ الْغَرَاءُ قَفْرٌ مُوَحِّشٌ
مَا فِيهِ مِنْ هَادٍ وَلَا مِنْ مُهْتَدٍ
نَشَبَتْ بِضَبْعَيْهَا مَخَالِبُ ضَيْغَمٍ
مِنْ مَأْلَفِ الْعَادَاتِ عَادٍ مِحْرَدٍ
وَمَحَا الْمُحَاقُ بُدُورَهَا فَتَكَنَّفَتْ
مُقْلَ النَّهْيِ ظُلُمَاءُ لَيْلِ سَرْمَدٍ

وعفت أعاصيرَ الهوى آثارُها
 فاستبهمت عن ناشِدٍ أو منشِدٍ
 واستوثقت أيدي الغواية والهوى
 بأزمةِ الألبابِ ، شُلَّتْ مِنْ يَدِ
 والعلمِ ضاحٍ ظلّه وصدى التقي
 قد صمَّ والغَيّ اعْتَلَى بِمُجَنَّدٍ
 فكشفتَ جَلبابَ الجهالةِ عن سنا
 بدرٍ لِسائِمةِ الظلالِ مُبَدَّدٍ
 بلْ ضَوْءِ صَبْحِ بَلْ نَهارِ نَاسِخِ
 آيَاتُهُ لَيْلَ الشُّكوكِ الزَّرَدِ (١)

وأنشد الشيخ رزوق في ابن عباد الرندي شارح الحكيم
 العَطائِيَّة :

وَمِنْ عِلْمِهِ أَنْ لَيْسَ يَدْعَى بِعَالِمٍ
 وَمَنْ فَقَرَهُ أَنْ لَا يُرَى يَدْعَى الْفَقْرَا
 وَمِنْ حَالِهِ أَنْ غَابَ شَاهِدُ حَالِهِ
 فَلَا يَدْعَى وَصِلًا وَلَا يَشْتَكِي هَجْرًا

وهذان البيتان قد بلغا في المدح غاية لا يدركها إلا من
 استحضر معاني الألفاظ المستعملة فيهما بإصطلاح مشائخ التربية
 وأهل التصوف . فمن شأن العلماء الراسخين أن لا يتبجحوا

(١) نشرت دالية اليوسي هذه مع شرح لناظمها باسم نيل الأمان في شرح
 التهاني أول مرة بمصر سنة ١٢٩١ هـ .

بالعلم ، لأنهم يعرفون أن فوق كل ذي علم عليم . ومنتهى العلم إلى الله العظيم ، فلذلك كان ابن عباد لا يدعى بالعالم في الوقت الذي كثر فيه المتهاكون على هذا الوصف حتى كاد يفقد معناه الحقيقي . ومن قرأ كتبه واطلع على ترجمة حياته عرّف ما كان عليه من هدي صالح وسمت حسن ، وأيقن أن أمثلاً المدح بالنسبة إليه هو ما جاء في الشطر الأول من هذين البيتين . ثم إن الفقر في الشطر الثاني المراد به فقر السلوك والطريق المعروف عند المتصوفة ، وكون الفقير بهذا المعنى لا يدعي الفقر هو المطلوب منه ، لأن دعواه له تعدّ تظاهراً أو مُراءاة للناس . ومن ثمّ قال ابن البناء السرقسطني في نظم المباحث الأصلية :

قولُ الفقير إنني فقيرُ
إلى الظهور أبداً يُشيرُ

والمتصوفة الأحرار لا يتظاهرون بشيء مما يدل على مذهبهم وطريقهم . ولذلك كثر إنكار العلماء المصلحين على أدعاء التصوف الذين يحسبون أنه هو لبس المرقعات وتعليق السبّح في الأعناق ، فمن هنا كان عدَمُ ادّعاء ابن عباد للفقر دليلاً على صحة فقره أي تجرّده وسلوكه على طريق القوم ، لا سيما وهو على ما ذُكر في ترجمته كان حسن اللباس كثير التعطر والتطيّب حتى قيل إن السلطان أراد مجاراته

في ذلك فقصر عنه ، وهذا مظهر سنّي ينفي عنه كل دعوى في التقشّف والمسكنة ، ويأتي البيت الثاني مؤكداً لاسقاط الدعوى وموافقة الظاهر للباطن بصورة أخرى ، فالحال فيه هو بالاصطلاح الصوفي ما يعرض لأرباب القلوب في لحظات الاشراف من وجد وهيام ، وشاهدُه هو ما يصدر عنهم أثناءه من فعل أو قول قد يكون فيه مخالفة للشرع ، لكن الممدوح هنا من ضبطه لأحواله واستقامة أموره على نهج السنة ، لا يعتريه ما يחדش وقاره ولا يصدر منه ما يخل بورعه وحاله ثابت لا يحتاج إلى شاهد ، لأنه عرف مقامه فلزمه ، ولم يكن ليدعى وصلاً ولا يشتكي من هجر ، لتمام تحققه بمفهوم (وما منّا إلّا له مقام معلوم) وهكذا وصف البيت صاحبنا بكمال المعرفة وأضفى عليه حلة من جلال القرب تنقطع دونها الأعناق .

إن هذه الشحنة من المعاني الذوقية والسلوكية التي عبّئ بها هذان البيتان في حسن تأتٍ وبراعة تناول لِمَا يشهد لأدباء الفقهاء بالابداع والتفوق حتى في المجالات التي تفرد بها الشعراء وظنوا أن لا منافيس لهم فيها . وسبق هذان البيتان عَلمَين مُفردَين في باب المدح بما يختص بالممدوح ، ولا يقبل المشاركة كأكثر أشعار المدح فضلاً عن غرابة مترعهما على الذين لم يعرفوا المدح إلا بالحلم والجود والشجاعة وما شابهها من الأوصاف التي تُرَصَّ رَصاً وقلتما تُخرَج في

صور مُوحية وأمثولات حية ، ولذلك حُبَّب إلينا إيرادهما
وتوضيحهما بهذه الكلمة .

وَيَمْدَحُ الْفُقَهَاءُ السَّلَفَ الصَّالِحَ اعْتِرَافاً بِفَضْلِهِمْ ، وَاشَادَةً
بِمَزَايَاهُمْ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْوَاعِظِ الْأَنْدَلُسِيِّ فِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ (رَضِيَ) :

مَا شَأْنُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَشَأْنِي
هُدْيِ الْمُحِبِّ لَهَا وَضَلَّ الشَّانِي

أَنِي أَقُولُ مُبَيَّنّاً عَنْ فَضْلِهَا
وَمُتَرَجِّماً عَنْ قَوْلِهَا بِلِسَانِي

يَا مُبْغِضِي لَا تَاتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ
فَالْبَيْتَ بَيْتِي وَالْمَكَانَ مَكَانِي

أَنِي خُصِّصْتُ عَلَى نِسَاءِ مُحَمَّدٍ
بِصِفَاتٍ بَرٍّ تَحْتَهُنَّ مَعَانٍ

وَسَبَقْتُهُنَّ إِلَى الْفَضَائِلِ كُلِّهَا
فَالسَّبْقُ سَبْقِي وَالْعَيْنَانِ عَنَانِي

مَرِيضُ النَّبِيِّ وَمَاتَ بَيْنَ تَرَائِي
فَالْيَوْمُ يَوْمِي وَالزَّمَانُ زَمَانِي

زَوْجِي رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ
اللَّهُ زَوْجَنِي بِهِ وَجَبَانِي

وأناه جبريل الأمين بصورتي
وأحبي المختار حين رآني
أنا بِكْرُهُ العذراء عندي سرّه
وضجيعة في منزلي قمران
وتكلم الله العظيم بحجتي
وبراءتي في محكم القرآن
وهي قصيدة طويلة سنتعرض لها في بحث آخر ان شاء الله .

أما مدحهم للنبي (ص) فهو البحر الزاخر ، الذي لا
يُعرف له أول من آخر ، وقد نظموا فيه القصائد المطولة
التي ضمنوها صفاته وأخلاقه وسيرته الكريمة ، والقصائد
المتوسطة والمقطعات والأبيات حتى ليحارُّ الباحث فيما يأخذ
وما يدع من هذه الدرر النفيسة والأعلاق الثمينة .

ومن الملاحظ أنه بعد الشعراء الصحابة الذين مدحوه (ص)
في حياته ، ونافحوا عنه وعن دعوته ، ونازلوا شعراء المشركين
في معارك كلامية ، غبّروا بها في وجوههم ونقّضوا كل
ما هَجَّوْا به الاسلام ورسوله الأكرم ، أمثال حسان بن
ثابت وعبدالله بن رواحة وغيرهما ، لم يتعاط أحد من الشعراء
الكبار مدح الجناح النبوي كما تعاطاه أدباء الفقهاء ، برغم
إسراف أولئك في مدح ذوي الجاه والحكام من أهل زمنهم ،

فأنت لا تجد في ديوان جرير أو الفرزدق مثلاً من شعراء العصر الأموي ولا في ديوان المتنبي أو أبي تمام كذلك من شعراء العصر العباسي مقطوعة فأحرى قصيدة في هذا الغرض ، فهي فضيلة تُذكر ، ومأثرة تشكر ، لأصحابنا الفقهاء والأدباء ، أبانوا بها براعتهم في هذا الباب من أبواب الشعر ، وعبروا عن عاطفتهم الدينية وعاطفة كل مؤمن ازاء الواسطة العظمى في كل خير ونُجَح وفلاح أصاب الأمة العربية والاسلامية بل الانسانية جمعاء من رسالته التي كانت رحمة للعالمين .

فمن أشهر المطولات في هذا الصدد القصيدة المعروفة بالشقراطيسية ، نسبة إلى ناظمها الشيخ أبي محمد عبدالله بن يحيى الشقراطي التوزري المتوفى سنة ٤٦٦ هـ وهي لامية من بحر البسيط جمعت إلى المدح والثناء أحداث السيرة النبوية وحياة الدعوة الاسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة ، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل ، وهي تقع في ثلاثة وثلاثين ومائة بيت . وقد نالت شهرة كبيرة بحيث خمّسها كثير من الأدباء وشرحوها وأخذها العلماء بالرواية عن ناظمها ونجد بعضهم يستشهدون بأبياتها في كتبهم كالزرقاني في شرح المواهب وغيره ، وما غطى عليها وقلل من رواجها إلا ظهور البردة والهمزية للبوصيري وانتشارهما هذا الانتشار الواسع المشهود ومطلعها :

الحمد لله منّا باعثِ الرّسُل
هدىّ باحمد منا أحمداً السّبُل

خير البرية من بدؤ ومن حضر
وأكرم الخلق من حافٍ ومتعل

ومنها في وصف فتح مكة ودخوله (ص) إليها في جيشه
الظافر :

ويوم مكة إذ اشرفت في أمم
يَضيقُ عنها فِجَاجُ الوَعَثِ والسهل

خوافقٌ ضاق ذَرعُ الحافقين بها
في قائم من عَجَاجِ الحيل والابل

وجحفل قَذِفَ الارجاء ذي لحَب
عرمرم كزُهاء الليل منسحل

وأنتَ صلّى عليك الله تقدّمهم
في بهوِ إشراق نور منك مكتمل

يُنير فوق اغرّ الوجه مُتَجَب
مُتَوَجّ بعزیز النصر مُقْبِل

يسمو أمام جنود الله مرتدياً
ثوب الوقار لأمر الله ممثّل

خَشَعَتْ تَحْتَ بَهَاءِ الْعِزِّ حِينَ سَمَتْ
بِكَ الْمَهَابَةِ فَعَلَ الْخَاضِعُ الْوَجِيلُ
وَقَدْ تَبَاشَّرَ أَمْلَاكُ السَّمَاءِ بِمَا
مَلَكَتْ إِذْ نِلَتْ مِنْهُ غَايَةَ الْأَمَلِ
وَالْأَرْضُ تَرْجُفُ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ فَرَقٍ
وَالْجَوُّ يَزْهَرُ اشْرَاقاً مِنَ الْجَذَلِ
وَالْحَيْلُ تَخْتَالُ زَهْواً فِي أَعْيُنِهَا
وَالْعَيْسُ تَنْشَالُ زَهْواً فِي ثُنَى الْجُدُلِ
لَوْلَا الَّذِي خَطَّتِ الْأَقْلَامُ مِنْ قَدَرِ
وَسَابِقِ مِنْ قَضَاءِ غَيْرِ ذِي حَوْلِ
أَهْلٍ ثَهْلَانُ بِالْتَهْلِيلِ مِنْ طَرْبِ
وَذَابِ يَذُبُّ تَهْلِيلاً مِنَ الذَّبْلِ (١)
الْمُلْكُ لِلَّهِ هَذَا عِزٌّ مَنِ عَقَدَتْ
لَهُ النُّبُوءَةُ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي الْأَزَلِ
وَمِنْ أَعْلَاهَا نَفْساً وَأَحْكَمَهَا صِنَاعَةً مُطَوَّلَةً ابْنُ أَبِي
الْحِصَالِ الْمُسَمَّاةُ بِمِعْرَاجِ الْمُنَاقِبِ وَمِنْهَا جِ الْحَسْبُ الثَّاقِبِ
الَّتِي نَظَّمَ فِيهَا نَسَبَهُ (ص) إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِطَرِيقَةٍ لَمْ
يَسْلُكْهَا غَيْرُهُ مِنَ الْوُقُوفِ عِنْدَ كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنْ عَمُودِ النُّسَبِ
الشَّرِيفِ وَذَكَرَ مَا لَهُ مِنَ الْمُنَاقِبِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ مَعْجَزَاتِهِ
الْبَاهِرَةَ وَفَضَائِلَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ مُتَصَرِّفاً فِي ذَلِكَ بِفَنُونِ الْقَوْلِ

(١) من هل الرجل ، أي فر وجبن .

وأساليب البلاغة التي جعلتها تحظى من كبار العلماء وخاصة
الأدباء بعظيم التقدير وفائق الإعجاب . حتى أنهم كانوا
يتنافسون في روايتها بالسند المتصل إلى ناظمها الذي يُعدّ
من أساطين رجال العلم والأدب بالأندلس في القرن السادس ،
وكان كاتباً لعليّ بن يوسف بن تاشفين بمراكش ، وقيل ان
وصف كاتب لم يطلق على نظير له في الأندلس وهذا أول
مطولته :

إليك فهِمّي والفُؤادُ يثرب
وإن عاقبي عن مطلع الوحي مغربي
أعلل بالآمال نفساً أغرّها
بتقديم غيأتي وتأخير مذهبي
وديتي على الأيام زورة أحمد
فهل ينقضي ديني ويقرب مطلبي
وهل أريدنّ فضل الرسول بطيبة
فيا برّد أحشائي ويا طيب مشربي
وهل فضلت من مركب العمر فضلة
تبلغني أم لا بلاغ لمركبي
ألا ليت زادي شربة من مياهها
وهل مثلها رِيّا لغلة مُذنب
ويا ليتني فيها إلى الله صابر
وقلبي عن الإيمان غير مُقلّب

وان امرأ وارَى البقيعُ عظامَه
لفي زُمرَة تُلقَى بسَهْل ومرحَب
وفي ذِمّة من خير من وطىء الثرى
ومن يعتَلِقُه حبلُه لا يُعذَّب
وما لي لا أشري الجنان بعزْمَة
يهون عليها كلّ طام وسبَسَب
وما ذا الذي يثني عنائي وانني
لَجَوَّابُ أَفَاق كثير التقلّاب
أفقرُ ففِي كَفَيّ لله نعمةُ
وبَيّنُ فقد فرقتُ بين بَنِي أَبِي
وقد مرّنتُ نفسي على البُعْدِ وانطوتُ
على مثل حدّ السّمهريّ المُدرَّب
وكم غُرْبَة في غير حقّ قطعُها
فهلاًّ لذاتِ الله كان تغرّبي
وكم فازَ دُونِي بالذي رُمْتُ فائزُ
وأخطأني ما ناله من تقَرَّب
أراهُ وأهوى فعله البرّ قاعداً
فيا قعديّ البرّ قُمْ وتلبَّسْ
أمانِي قد أفنى الشبابَ انتظارها
وكيف بما أعيا الشبابَ لأشيب

وقد كنتُ أسري في الظلام بأذهم
فها أنا أغدو في الصباح بأشهب

فمن لي وأنى لي بريح تحطتي
إلى ذروة البيت الرفيع المُنْتَب

إلى الهاشمي الأبطحي محمد
إلى خاتم الرسل المكين المُقَرَّب

إلى صفوة الله الأمين لوحيه
أبي القاسم الهادي إلى خير مشعب

إلى ابن الدَّبَّيْحِين الذي صبغَ مجده
ولمّا تُصَغَّ شمسٌ ولا بدرٌ غيَّهَب

وقد أطلنا بما أوردناه من طالعة هذه القصيدة ، وقصدنا
أن ندلّ على عارضة صاحبها وقوته في التعبير عن أغراضه
وما يجول في ذهنه من المعاني . وكم وددنا لو قدمنا أمثلة أخرى
منها ، ولكن ضيق المجال ، مع ما يقتضيه التمثيل من الوقوف
ولو قليلاً على مضامينه الرائعة يمنعنا من ذلك .

ونظنّ أننا في غير حاجة إلى ذكر قصيدتي البردة والهمزية
للبوصيري ، فإنهما لشهرتهما لا يخفى أمرهما على أحد .
ولعلنا نعود إليهما في غير هذا الباب .

ونكتفي بهذا القدر من المديح النبوي لرقى إلى سدرة الثناء

على الله عز وجل بما هو أهله ، وشكراً آلائه والتعرض
لنفحاته القدسية ، فإن للفقهاء في ذلك شعراً بليغاً مصدره
حرارة الإيمان وصدق العبودية وقطع اللحظ عما سواه تعالى
وهو مقصد قلما يلمّ به غيرهم من الشعراء ، ولا يقع في
كلامهم الا ندوراً وعلى سبيل الاستطراد .

فمن أحسن ذلك قول محمود الوراق :

إذا كان شكري نعمةً الله نعمةً
عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضلِهِ
وإن طالت الأيام واتّصل العُمرُ
إذا مسَّ بالسراء عمَّ سرورها
وان مسَّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلاّ له فيه نعمة
تضيق بها الأوهام والسر والجهر
وقوله :

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله
على نِعَم ما كنت قط لها أهلا
متى زدتُ تقصيراً تزدني تفضلاً
كأنّي بالتقصير أستوجبُ الفضلاً

ولأبي القاسم السهيلي صاحب كتاب الروض الانف :

صرفتُ إلى رب الأنام مطالي
ووجهت وجهي نحوه ومآربي

إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه
ملك يُرجى سببه في المسائب

إلى الصمد البرّ الذي فاض جوده
وعم الورى طرا يحزل المواهب

مُجيري من الخطب المخوف وناصري
مُغِيثِي إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ مَذاهِي

مُقبلي إِذَا زَلَّتْ بِي النعل عائراً
وَأَسْمَحُ غَنّاً وَأَكْرَمُ وَاهِب

فما زال يُولينِي الحميل تلطّناً
وَيُدْفَعُ عَنِّي فِي صَدُورِ النَوَائِبِ

وَيَرْزُقُنِي طِفْلاً وَكُهْلاً وَقَبْلاً
جَنِيناً وَيَحْمِينِي دَنِيّاً الْمَكَايِبِ

إِذَا سَدَّتْ الْأَمْلاكُ دُونِي بَابَهَا
وَنَهَنَتْ عَنْ غِشْيَانِهِمْ زَجْرُ حَاجِبِ

فَرِغْتُ إِلَى بَابِ الْمُهَيْمِنِ ضَارِعاً
مُدِلاً أَنَادِي بِاسْمِهِ غَيْرَ هَائِبِ

فلم ألفِ حجَّاباً ولم أخشَ منْعَه
ولو كان سُؤلي فوق هام الكواكب

كريم يُلْبِي عبْدَه كلما دعا
نهاراً وليلاً في الدجى والغياهب

يقول له لبيك عبدي داعياً
وان كنتَ خطّاءً كثيرَ المصائب

فما ضاق عفوي عن جريمة خاطيء
وما أحدٌ يرجو نوالي بخائب

فلا تخشَ إقلاقاً وإن كنتَ مكثراً
فعُرْفي مبدولٌ إلى كل طالب

سأسأله ما شئت إنَّ يمينَه
تَسَحَّ دِفَاقاً بالمُنَى والرغائب

فحَسَنِي رَبِّي في الهزائِر مَلَجَآ
وحِرْزاً إذا خِيفتُ سهامُ النوائب

وفي معنى قوله إذا سَدَّتْ الأُملاكُ دوني بابها قولُ المكودي
صاحبُ المقصورة آنفةِ الذكر :

إذا عرَضْتُ لي في زِماني حاجة
وقد أَشْكَلتُ فيها علي المقاصد

وقفتُ ببابِ الله وقفةً ضارع
وقلتُ إلهي إنني لك قاصد

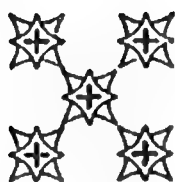
ولستَ تراني واقفاً عند باب مَنْ
يقول فتاه سيدي اليوم راقِد

وللشيخ مصطفى البابي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٠ :

يا حيّ يا قيّوم قد	بهر العقول سنا بهائك
أثني عليك بما علم	ت وأين علمي من ثنائك
هوت المشاعر والمداد	رك عن معارج كبريائك
متحجباً في غيبك الأحم	ى منيع في علائك
عجباً خفاؤك من ظهو	رك أم ظهورك من خفائك
ما الكون إلا ظلمة	قبس الأشعة من سنائك
وجميع ما في الكون فا	ن مستمد من بقائك
بل كل ما فيه فقيـ	ر مُستمّيع من عطائك
ما في العوالم ذرّة	في جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتها إليها	ك بالافتقار إلى غنائك

والثناء على الله عز وجل والتعلق به وسؤاله باب واسع
في شعرهم ، وهو على كل حال قمة شعر المدح وذروته
وسنامُه . وقد رأينا أنه كبقية أغراض المدح الأخرى لا

يقصُرُ عن أقوال فحول الشعراء في هذا الباب ، فأصحابنا
الفقهاء أحرِياءُ أن يرفعُوا به الرأس لرفعة شأنه شكلاً
وموضوعاً .



الهجاء

الفقهاء وإن تحصّنوا بالعلم وتأدّبوا بالدين ، فإنما هم بشر من الناس تُساوِرُهُم نزواتُ الشرِّ ، وتستفزّهم أهواءُ النفس فيُبغِضون ويثُورون ، وتنشأ بينهم الحزازات ، فيتراشقون بسهام النقد والتجريح ومن كان منهم يقول الشعر لم يملك أن لا يتنفّس ببضعة أبيات في هجاء خصمه ، منشداً بلسان حاله قول الشاعر الحماسي : وعلى م اركبه إذا لم انزل ؟..

وقولنا ببضعة أبيات يعني القليلة ، فمن الملاحظ أن شعرهم في هذا الباب قليل . ومع قِلَّتِهِ فإنه لا يسلك سبيل الفُحْش ولا يتورّط في السبّاب ، وفي الغالب يلجأ إلى التعريض والكناية ، فلا يُجَاهِرُ بالعيب ولا يُصرّح باسم المهجوة ومن ثمّ كانت أشعارهم في الهجاء انما هي أبيات ومقطعات لا قصائد مطولات على المعهود في شعر الشعراء الذين تعاطوا هذا اللون من الانتاج الشعري .

والواقع أنّ الهجاء بهذا الشكل يُكوّن فنّاً من القول عرفته سائر الآداب العالمية من قديمة وحديثة ، بخلاف الهجاء الذي يُغْرِقُ في الطعن ويبالغ في التقول ، ويتخذ من الفُحْش وسيلة لتحطيم الشخص المهجوة ، فإنه أبعد ما يكون عن الأدب والفن ، وتصنيفه مع الأغراض الشعرية إنما هو على سبيل التجاوز والاعتداد بالشكل أكثر من المضمون.

ولهذا كثيراً ما ندّد به النقاد واستبعدوه مؤرّخو الأدب من حظيرة الشعر العربي ، وصار اليوم في عداد الأغراض الشعرية المنقرضة أو التي أشرفت على الانقراض ، فقلّما نجد في ديوان مُحدّث في غرض الهجاء شيئاً يذكر ألا أن يكون نظماً قليلاً على نحو ما ألعنا إليه وعلى سبيل الكناية والتعريض ، بحيث انما يتعلق النظر منه بالتعبير الأدبي الذي يكون هو مَنَاطَ الإعجاب ، وأما التشنيع بشخصية المهجو فإنه آخر ما يخطرُ بذهن القارئ أو السامع . ومن هنا تظهر حَصَافَةُ أصحابنا الفقهاء وسَبَقُهُم الأدبي ان صح التعبير إلى تمحيص حقيقة الفن وعدم خلطهم بين الأغراض الشعرية الحقيقية وما حُمِلَ عليها تهريجاً وتضليلاً وذلك ما يجعلُ أدبهم مثلاً يُحْتَذَى ومِنْوَالاً يُنْسَج عليه لو كان هناك انصاف ، لا مَحَلَّ زِرَاية وتنكيت كما يجري على الألسنة . فمِمّا نرويه من ذلك قولُ الامام الشافعي فيمن دعا عليه بالموت :

تَمَنَّى أناسٌ أن أموت وإن أُمْتُ
فَتِلْكَ سَبِيلُ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ
وقد عَلِمُوا لو ينفع العلمُ عندهم
لَن مَتَ ما الداعي علي بمُخْلَدٍ
وقد يسبقُ الداعي إلى ما به دعا
فلا يَأْمَنَنَّ إِلَّا يكون هو الرّدي

ويُقال ان صاحبه المعنيّ في هذه الآيات هو أشهبُ
 الفقيه المالكي المعروف ، فانظر كيف لم يُسمّه ولم يقل فيه
 شيئاً يُكرّه إلا ما هو من قبيل المُسَلِّمات ، ولا غَرَوَ فقد
 كان شريكه في الأخذ عن الامام مالك ، وكان أحدَ الأعلام ،
 فإن يكن ما نُسِبَ اليه حقاً فهو مما يكون بين أهل الفضل
 والكمال من المنافسة التي يقتضيها الاحتكاك ، والمعاصرة
 حجابٌ كما يقولون ، ومع ذلك فما زاد الشافعي رحمه الله
 على القول بأن الموت سبيل الجميع وانه ان يمت فإن الداعي
 عليه لن يخلد ولربّما سبقه إلى الموت ، فإن الأجل من
 المُغَيِّبات التي يجهلها الناس وهو لا يزيد ولا ينقص بالدعاء
 والتمني ، وهذه كلها حقائق معلومة لكل واحد من الناس ،
 لا تنالُ شيئاً من سمعة أشهب ولا تقدح في شخصيته بوجه
 من الوجوه فإن سمينا الآيات التي تضمنتها بهجاء فإنما ذلك
 لأنها خرجت مخرج الانتصار للنفس والرد على الخصم كما
 يكون الهجاء غالباً .

ومن قول أبي العباس بن سُريج الفقيه الشافعي المشهور :

ولو كلّمّا كلبٌ عوى ملتُ نحوه

أجاوبه ، إنَّ الكلابَ كثير

ولكن مُبالاتي بمنّ صاح أو عوى

قليل لأنّي بالكلابِ بتّصير

وهذان البيتان ان كانا في غير المستوى الخلقي الرفيع
لآيات الشافعي ، فهما لا يترالان إلى ميدان المهاترة ومجابهة
الخصوم ، وإنما يكتفيان بنوع من التعريض ، فيه احتقار وفيه
تعالٍ ، ولكنه لا تشهير فيه .

ولِمُنْذِرِ بن سعيد الفقيه الأندلسي الكبير يذم المتعصّبين
من الفقهاء :

عَذِيرِيّ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ كَلِمًا
طَلَبْتُ دَلِيلًا هَكَذَا قَالَ مَالِكٌ

فَإِنْ عَدْتُ قَالُوا هَكَذَا قَالَ أَشْهَبُ
وَقَدْ كَانَ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْمَدَارِكُ

فَإِنْ زِدْتُ قَالُوا قَالَ سَحْنُونُ مِثْلَهُ
وَمَنْ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَهُ فَهُوَ آفِيكَ

فَإِنْ قُلْتُ قَالَ اللَّهُ ضَجَّوْا وَأَكْثَرُوا
وَقَالُوا جَمِيعًا أَنْتَ قِرْنٌ مُمَاحِكٌ

وَإِنْ قُلْتُ قَدْ قَالَ الرَّسُولُ فَقُولُهُمْ
أَنْتَ مَالِكٌ فِي تَرْكِ ذَاكَ الْمَسَالِكِ

وهي أبيات فريدة في نقد التعصب المذهبي بطريقة الحوار
من غير أن يَحْيِفَ القائل فيها على مُنَاطِرِهِ ، وإنما يحكي

قوله مُجَرَّدًا عن كل تعليق ، ولربما كان فيه تهجم عليه ولكنه لا يقابله بمثله ، وذلك أدعى للانصاف وتقرير الحق وترك القارىء والسامع يعترفان به لمن هو له ، فأى كلام مُهذَّب يعلو على هذا الكلام ، وهو بعدُ في سياق الذم لحطة هؤلاء القوم أي في هَجْوِهِم بصريح العبارة ؟

وقارِنُ بين هذه الأبيات وأبيات الشاعر أبي بكر بن الأبيض في الموضوع وهي قوله :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكم
كالذَّيبِ يختلُ في الظلام العاتم
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالك
وقسمتمُ الأمـوال بـابن القاسم
وركبتمُ شُهَبَ البِغَالِ بأشهب
وبأصْبَغٍ صُبِغَ لَكُمْ في العالم

تجدُ بينهما بوناً بعيداً في الترفع عن العبارات النابية والانهامات الرخيصة التي اشتملت عليها هذه وسَلِمَت منها تلك مع أن المعنيتين بالأمر هم بالذات نفسُ الفقهاء المالكية الذين كانوا بالأندلس ، والشاعيران كلاهما من نفس الاقليم ولكن كلَّ يُنفِق مما عنده ، فذلك أدب الفقهاء وهذا أدب الشعراء ، وكل يعمل على شاكلته .

والنُحاة كالفقهاء لهم مذهب سلفي ورواية يُرجّحونها
على الرأي ، ولنستمع إلى ما قاله اليزيدي ، أحدُ أئمتهم من
المدرسة البصرية المُحافظَة ، في هجو الكسائي وأشياءه من
نُحاة الكوفة ، الضالعين مع الرأي والاجتهاد :

كُنَّا نَقِيسُ النُّحُوَ فِيمَا مَضَى	على لسان العرب الأول
فجاءَ أقوامٌ يقيسونَه	على لُغَى أشياخ قُطْرَبُلْ
فكلّهم يعمل في نقضٍ ما	به يُصان الحق لا يأتي
إن الكسائيَّ وأصحابه	يرقون في النحو إلى أسفل

وما أحسن تعبير الرقي إلى أسفل ، فإنه من التخيلات
الأدبية البارعة ، وكذلك القياس على لغة أهل قُطْرَبُلْ وهي
قرية شمالي بغداد اشتهرت بخمرها ، وكانت مثابة لأصحاب
اللهو والبطالة فإن فيه سخرية لازعة من القوم ومع أن مضمون
الآيات هو الدفاع عن قضية علمية مُحِقّة ، فإن غرض
الهجاء فيها لا يتسم بفحش ولا يسفل إلى سباب . وبالرغم
من ذلك فإن لليزيدي قصيدةً في رثاء الكسائي لما مات هو
ومحمد بن الحسن الفقيه صاحبُ أبي حنيفة في يوم واحد ،
وذلك مما يدل على سلامة صدره ، وأنه لما قال فيه ما قال
إنما غضب للعلم وانتصر للعربية فرحمة الله عليهم جميعاً .

والأطباء لهم كذلك في هذا المجال ذكرٌ ، فمِن قول

أحدهم وهو جرجيس الأنطاكي يهجو أبا الخير اليهودي
المتطبّب :

إن أبا الخير على جهله يخِفّ في كِفِّته الفاضل
عَلَيْهِ الْمِسْكِينُ من شؤمه في بحر هُلْك ماله سَاحِل
ثلاثةٌ تدخل في دَفْعَة طلعتُهُ والنَّعشُ والغاسِل

قال ابن القِفْطِي : وهو من أحسن ما سمعته في هجو
طبيب مشووم .

ولسديد الدين بن رقيقة في طبيب قبيح الوجه :

قالوا خَلِيقٌ بالطبيب بأن يُرى
بالطبع يعدم رُوْنَقاً وجمالاً
صَدَقُوا ولكن لا إلى حدّ به
يُوْذِي الْمَرِيضَ وَيُفْرِعُ الْأَطْفَالَ

وله أيضاً في طبيب غير مُوفّق العلاج :

أيا فاعلاً خلّ التطبّب واتد
فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل
فتركيب أجسام الأنعام مَوْجَل
فليم - لا كلاك الله - تعجّلُ بالحلّ؟

كَأَنَّكَ يَا هَذَا خُلِقْتَ مَوْكَلًا
 عَلَى رَجْعِ أَرْوَاحِ الْأَنَامِ إِلَى الْأَصْلِ
 بَهَرْتَ الْوَبَا إِذْ كَانَ قَتْلُكَ دَائِمًا
 وَذَلِكَ فِي الْأَحْيَانِ يَحْدُثُ فِي فَصْلِ
 كَفَى الْوَصِيبَ الْمُسْكِينَ شَخْصُكَ قَاتِلًا
 إِذَا عُدَّتْهُ قَبْلَ التَّعَرُّضِ لِلْفَصْلِ

وَلِلْبَدِيعِ الْأَسْطُرْلَآبِيِّ يَهْجُو فَاصِدًا :

وفاصد مِبْضَعُهُ مُشْرَعٌ	كَأَنَّهُ جَاءَ إِلَى ضَرْبِ
فَصْدٌ بَلَا نَفْعٍ فَمَا حَاصِلُ	غَيْرُ دَمٍ يَخْرُجُ مِنْ ثَقْبِ
لَوْ مَرَّ فِي الشَّارِعِ مِنْ خَارِجِ	لَمَاتَ مَنْ فِي دَاخِلِ الدَّرْبِ
خُذْهُ إِذَا جَاشَتْ عَلَيْكَ الْعَدَا	فَوَاحِدُهُ يَغْنِيكَ عَنْ حَرْبِ

إِنَّ هَذِهِ الْقِطْعَ كُلَّهَا مَلِيَّةٌ بِالنِّكَتِ غَنِيَّةٌ بِالنُّوَادِرِ تَشِفُّ عَنْ
 رُوحٍ خَفِيفَةٍ وَطَبْعِ مَرِحٍ . وَهِيَ بِالصُّورِ الْكَارِيكَاتُورِيَّةِ أَشْبَهُ
 مِنْهَا بِشَعْرِ الْهَجَاءِ فِي مَفْهُومِهِ الْمَعْهُودِ الَّذِي يُشْنَعُ بِأَخْلَاقِ
 الْمَهْجُوتِ ، وَيَقَعُ فِي عِرْضِهِ وَيَجْعَلُهُ مُضْغَةً فِي الْأَفْوَاهِ وَلَا
 غَرَوْ فَإِنَّ أَصْحَابَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَأَدَبِهِمْ هُوَ الْأَدَبُ الَّذِي
 يَتَحَكَّمُ فِيهِ الْعَقْلُ وَالذَّوْقُ السَّلِيمُ .

وَمِنْ لَطَائِفِ الْهَجَاءِ قَوْلُ أَبِي سَعِيدِ الْعُقَيْلِيِّ فِي أَبِي بَكْرٍ
 الصَّوْلِيِّ الْكَاتِبِ ، وَكَانَ لَهُ خَزَانَةٌ كُتِبَ قِيَمَةُ :

إِنَّمَا الصَّوْلِيَّ شَيْخٌ أَعْلَمُ النَّاسَ خِزَانَهُ
إِنْ سَأَلْنَاهُ بِعِلْمٍ طَلَبًا مِنْهُ إِبَانَهُ
قَالَ يَا غِلْمَانُ هَاتُوا رَزْمَةَ الْعِلْمِ الْفُلَانَهُ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ بَيْنَ الْحَافِظِ بْنِ حَجَرِ الْعَسْقَلَانِيِّ وَبَدْرِ الدِّينِ
الْعَيْنِيِّ وَكَانَتْ عِلَاقَتُهُمَا عَلَى غَيْرِ مَا يُرَامُ . فَاتَّفَقَ أَنْ مَنَارَةَ
الْمَدْرَسَةِ الْمُؤَيَّدِيَّةِ بِمِصْرَ مَالَتْ عَلَى بُرْجِ بَابِ زَوَيْلَةَ . فَأَكْثَرَ
الشُّعْرَاءُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مُعَرَّضًا
بِالْعَيْنِيِّ :

لِجَامِعِ مَوْلَانَا الْمُؤَيَّدِ رَوْنَقُ
مَنَارَتِهِ بِالْحُسْنِ تَزْهَوُ وَبِالزَّيْنِ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَلَى الْبُرْجِ امْهَلُوا
فَلَيْسَ عَلَى جِسْمِي أَضَرٌّ مِنَ الْعَيْنِ
وَبَلَغَ ذَلِكَ الْعَيْنِي فَقَالَ وَأَجَادَ :

مَنَارَةٌ كَعُرُوسِ الْحَسَنِ إِذْ جُلِّيَتْ
وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ
قَالُوا أَصِيبَتْ بَعِيْنٌ قُلْتُ ذَا غُلَطُ
مَا أَوْجَبَ الْهَدْمَ إِلَّا خِيَسَةُ الْحَجَرِ

وَلَا يَخْفَى مَا فِي قَوْلِهِمَا مَعًا مِنْ جَمَالِ التَّوْرِيَّةِ وَحَسَنِ التَّعْرِيفِ ،

مع أن غرض الشعر في الظاهر هو وصف المنارة ومدح بانيها ،
وبهذا الاقتدار على الجمع بين غرضين متنافيين وحسن التصرف
في ذلك اشتهر هذا الشعر وتناقله الرواة وهو حري بذلك .
وقد قال في الموضوع شعراء غير فقهاء أقوالاً لم تشتهر ولم
يحفل بها أهل الأدب ، وهذا مما يشهد لأدب الفقهاء بالرجحان ،
وينفي عنه وصمة التخلف في أي ميدان .

ومثال من نقاض العلماء وتهاجيهم بمثالب الجنس والقبيل
كما كان يقع بين الشعراء قديماً ، نختم به هذا الفصل ، وهو
يتشخص في قول الفقيه عبد الملك التجموعي يهجو البربر :

همُ البرابِرُ لا ترجو نوالَهمُ
وسأل من الله تعجيلَ النوى لهمُ
لا بلِّغ الله قلباً منهم أملاً
وبلِّغ الله قلبي ما نوى لهمُ

وقوله أيضاً :

فلو كنتُ في الفردوس جاراً لبربر
لحوّلتُ رَحلي من نعيم إلى سقر
يقولون للرحمن باباً (١) يجهلهم
ومن قال للرحمن باباً فقد كفر

(١) يعني بذلك ما يجري على السنة عامتهم من قولهم في مقام التعجب وما
إليه : ابابا ربّي !

وفي قول العلامة أبي علي اليوسي مجيباً له :

كنى بك جهلاً أن تحينَ إلى سقرٍ
بديلاً من الفردوس في شر مُستقرٍ
وتجهل معنى مُستبيناً مجازهُ
لدى كل ذي فهم سليم وذو نظر
فإنَّ أبا الإنسان يدعوه أنَّه
كفيل وقيوم رحيم به وبرٍ
ومن قال للرحمن بابا فقد عنى
به ذلك المعنى المجاز وما كفر
وقد قال عيسى انني ذاهبٌ إلى
أبي وأبيكم جاءَ ذلك في الأثر

وقد اخترتُ هذا المثال من شعر المغاربة ترويحاً لأدبهم
وتوقيفاً على ما لهم من الرسوخ في المعرفة باللغة العربية حتى
ولو كانوا ممن ينتسبون إلى البربر كصاحبنا اليوسي ، فهو
بِجَزَالته وتعمقه في علم البيان لا يقلّ عن التجموعي في
صنعتة وبديعه . وبيت القصيد أنهما معاً فقيهان أديبان وأدبهما
مما لا مطعن فيه ولا مأخذ .



الرثاء

وسبيلُ الفقهاء في الرثاء هو سبيلُهم في المدح ، إنما يرثون من يحظى بحبهم وتقديرهم كذوي قُرباهم ومشيختهم من أهل العلم والدين ، أو مَنْ يُحقّق مراد الشرع في إعلاء كلمة الله ونشر ألوية العدل والسلام بين الناس من القادة والملوك المصلحين . فرثاؤهم ينبعث عن عاطفة صادقة ولا يكون مُجاملةً ولا تكلفاً . حتى إن أحدهم وهو الشيخ رضوان الجنوي قال في أبيات له مُعيّناً من يستحق الرثاء من الأموات :

إذا شئتَ أن ترثي فقيداً من الوري
وتندُبهُ بعد النبي المكرّم

فلا تبكين إلا على فقد عالم
يُبادر بالتفهم للمتعلّم

وفقد إمام عادل قام ملكه
بأنوار حكم الشرع لا بالتحكّم

وفقد شجاع صادق في جهاده
وقد كُسرَتْ راياته في التقدّم

وفقد كريم لا يملّ من العطا
ليُطْفِئ بؤس الفقر عن كل مُعْدِم

وفقد تقي زاهد متورع
مُطِيع لرب العالمين مُعْظَم

فهم خمسةٌ يُبْكِي عليهم وغيرُهم
إلى حيثُ أَلَقْتَ رحلتها أم قَشْنَم

وتردّد تعينُ هذا العدد في أبيات أخرى لغيره . وبعضُهم
اقتصر على ثلاثة من الخمسة : وهم العالم والشجاع والحواد .
والواقع أن هؤلاء الأصناف الخمسة هم أكثر من تتناوله المَثَرَة
العربية باطلاق ، سواء كانت للفقهاء أو لغيرهم ، إنما إذا
غلب على مرثي الشعراء أن تكون في الملوك والقادة والأجواد ،
فإن مرثي الفقهاء أكثر ما تكون في الصّنفين الباقيين أعني
العلماء والزهاد .

والمُهِمّ هو طريقةُ التناول ، فقد اشتهر أن بعضَ الشعراء
سُئِلَ : لِمَ كانت أمداحُكم أجودَ من مرثيكم ؟ فأجاب :
لأننا إذا مدحنا قلنا على الرجاء ، وإذا رثينا قلنا على الوفاء ،
وبين الباعثين بَوْنٌ ، وهذا الكلام إن صحَّ تنزّلُه على الشعراء ،
فإنه لا يتنزّل على الفقهاء ، لأن أمداحهم كما رأينا في باب
المدح ليس باعْثُها الرجاء ، وهي لا تَقِلُّ جودة عن أمداح
الشعراء فكذلك مرثيهم ليس باعْثُها الوفاء فقط ، ولكن

الايمان بشخصية المَرثي والشعورُ بعِظمَ الفاجعة فيه ، فهي
لا بد أن تجُودَ كما جادت الأمداح ، ولا تضعف لضعف
الباعث كما قال هذا الشاعر .

هذا ولما كانت التعزية من الرثاء وهي سابقةٌ والرثاء لاحق ،
رأينا أن نقدم أمثلة من قولهم فيها ثم نعقب عليها بأقوالهم في
الرثاء .

فمن ذلك ما كتب به الحسن البصري إلى عُمر بن عبد العزيز
تعزيةً في ابنه عبد الملك :

وعُوِضت أجراً عن فقيد فلا يَكُنْ
فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

وكتب ابنُ عبد الحكم النقيه المصري إلى الامام الشافعي
يعزيه في ميت له :

إنَّا معزوك لا أنا على ثقة
من البقاء ولكن سُنَّةُ الدين
فما المُعزَى بباق بعد ميته
ولا المُعزَى ولو عاشا إلى حين

وهذان البيتان نُسبا لغير واحد من قالة الشعر ومن المتمثلين
بهما ، والأشبه أن يكونا لفقيه مثل ابن عبد الحكم ، فإن

نفسَ عالم الدين يلوح عليهما ، وكذلك رأيناها منسويين
اليه تعزية للشافعي بخط أحد العلماء الأثبات .

ولما نُعي الحافظ الدارمي إلى البخاري أنشد مُعزياً فيه
نفسه :

إن عشتَ تُفجع بالأحبة كلهم
وبقاءُ نفسك لا أبا لك أفجعُ

وكتب القشيري تعزيةً في شيخ الاسلام أبي عثمان الصابوني :

وقالوا الامامُ قضَى نحبَه
وصيحةٌ من قد نعاها علّتْ

فقلتُ فما واحد قد قضى
ولكنه أمةٌ قد خلّتْ

وكتب الصاحب أمين الدولة إلى الوزير بُرهان الدين
يعزيه في ولده :

قُولاً لهذا السيد الماجد
قولَ حزينٍ مثله فاقد

لا بدءاً من فقد ومن فاقد
هياتَ ما في الناس من خالد

كُنْ الْمُعْزَى لَا الْمُعْزَى بِهِ

ان كان لا بد من الواحد

وللقاضي شهاب الدين بن الفضل يُعْزَى تقي الدين السبكي
في والدته :

كلّ امرئ منا سيلقى الردى
بِذِمِّهِ ان شاء أو حمده

فاسمع أبا الفتح وَقَيْتَ الردى
ولا استطرت النار من زَنْدِهِ

مثلك من يلقى الردى صابراً
محتسباً للأجر في فَقْدِهِ

فقدت أمّاً برّة لم يزل
كوكبُها المشرق في سَعْدِهِ

ماتت وأبقت منك فينا فتي
كمثل ماء الورد من ورْدِهِ

ولأبي سالم العياشي مُعْزِياً بفقد النبي (ص) :

وما نحن إلا عُشْبَةٌ الموت أنبتت
بأرض الردى فالنبتُ ذاوٍ ومُحْصَدٌ

ولو كان حيّ يستجّازُ بقاؤه
لكان به أولى النبيّ محمّدُ

ومثله قول بعض العلماء :

فلو كانت الدّنيا تـلـومُ لأهلها
لكان رسولُ الله حيّاً وبقايا

ولما مات العلامة عبد القادر بن شقرون من علماء فاس
قال الناس قد ذهبَ العلم ، فأنشد سليمان الحوّات هذين
البيتين :

يقولون ان العلم غاضت بحارُه
وأصبح هذا الغربُ من أهله قفراً

فقلتُ لهم في التاوديّ بن سُودة
وأعقابه ما يملأ البرّ والبحراً

وهي تغزية بمن بقي عمّن ذهب ، وفيها غاية المدح للشيخ
التاوديّ بن سودة ، وكان شيخ الجماعة في وقته ، فهو جدير
أن يتغزى به الناس .

وهذه التعازي على اختلاف مراتبها في الإحسان تُضاهي
أحسن التعازي التي تتضمنها كتب الأدب لفحول الشعراء ،

ففيها ما تغلب عليه النزعة الدينية من التّغيب في الأجر والحث على الصبر ، وما تتخلله النظرة الفلسفية للموت ، وما يتردد فيه نفَسُ الشعر الجاهلي ، وكذلك هي تعازي الشعراء من غير الفقهاء على اختلافٍ في الصياغة وتفاوتٍ في درجات الإحسان .

وأما المراثي التي قالها أدباء الفقهاء على الوجه الذي ذكرنا فإننا نأتي منها بأنماطٍ مختلفة تُنبئُ عن قوة عارضتهم وتفننهم في هذا الغرض ، وإن كنا سنجتزئ بالقليل عن الكثير ، لأن تتبع ذلك يطول .

فمن مرثية لمحمد بن عبد الرحمن البغدادي المعروف بأبي الحسن الصالح في الإمام مالك :

سقى الله ما ضمَّ النبيَّ محمداً
من الأرض ما يسقي الغمامُ الهوامعُ
وجاد لِقَبْرٍ فيه أكفان مالك
أفأوقه المُسَبَّلَاتُ الدوافع
فنعِمَ إمامُ العلم والكوكب الذي
أتى نوره في صفحة الدّين ساطع
عقيد الهدى فينا ومصباح ديننا
ومَن قوله بالحق والرشد واقع
ومَن عُرْوَةُ الإسلام في بطن كفه
هي العروة الوثقى وبالنصح صاعد

فإن لم تكن فيما قضى اللهُ صاحباً
فإنك للآمّي بالحق تابع
أقمتَ لنا دين النبي محمد
وجاريه والصّهرين مُذْ أنت يافع
وعِلْمُكَ أعلَى العلم فرعاً ومخرَجاً
كذا كل علم دونه متواضع
لعمري لقد أورثنا العلم خالصاً
وقد أوحشت منك الديار البلاقع
نقلتَ إلينا عن مصابيح ديننا
بتوفيق ربِّ فضلُ جدّواه واسع
فإن لم تكن فينا فعلمُك بيننا
نُدافع عنه من جفّا ونصارع
بكل بيان من كتاب وحجة
لها من قلوب المؤمنين مَوَاقِع
ستبكيك أرضُ الناس والناسُ فوقها
وتبكيك في الجوّ النجوم الطوالع
ولا بن دُرَيْد في الإمام الشافعي مرثية من هذا البحر وهذه
القافية يقول فيها :

ألم تر آثارَ بنِ ادريس بعده
دلائلُها في المشكلات لتوابع

معالمُ يفنى الدهرُ وهي خوالد
وتنخفض الأعلامُ وهي فوارع

مناهجُ فيها لِلهُدَى متصرف
مواردُ فيها للرشاد شرائع

ظواهرُها حُكمٌ ومُستنبطاتُها
لِمَا حُكمَ التفريقُ فيه جوامع

لِرأيِ ابنِ ادريس ابنِ عمِ محمد
ضياءٌ إذا ما أظلم الخطب ساطع

إذا المعضلاتُ المشكلات تشابها
سماً منه نورٌ في دُجَاهُنَّ لامع

أبى اللهُ إلا رفعه وعُلوّه
وايس لِمَا يُعليه ذو العرش واضع

تسربل بالتقوى وليداً وناشئاً
وخصَّ بلبِّ الكهل مُذْ هُوَ يافع

وهذبَ حتى لم تُشِرْ بفضيلة
إذا التُمِستْ إلاً إليه الأصابع

فَمَنْ يَكُ عِلْمُ الشَّافِعِيِّ إِمَامَهُ
فَمَرَّتَعُهُ فِي بَاحَةِ الْعِلْمِ وَاسِعِ
سَلَامٌ عَلَى قَبْرِ تَضَمَّنَ جَسَمَهُ
وَجَادَتْ عَلَيْهِ الْمُدْجَنَاتُ الْهَوَامِعُ
لَشَيْنٍ فَجَعَلْنَا الْحَادِثَاتُ بِشَخْصِهِ
لَهُنَّ لَمَّا حَكَمْنَ فِيهِ فَوَاجِعُ
فَأَحْكَامُهُ فِينَا بِدُورٍ زَوَاهِرُ
وَأَثَارُهُ فِينَا نَجْمٌ طَوَالِعُ
وَلَا بِنِ دُرَيْدٍ أَيْضاً يَرِثُنِي الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ ،
مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ :

أَوْدَى أَبُو جَعْفَرٍ وَالْعَالَمُ فَاصْطَحَبَا
أَعْظَمُ بَدَاً صَاحِباً أَوْ ذَاكَ مَضْحُوبَا
إِنْ الْمَنِيَّةُ لَمْ تُتْلَفْ بِهِ رَجُلَاً
بَلْ أَتْلَفَتْ عِلْماً لِلدِّينِ مَنْصُوبَا
كَانَ الزَّمَانُ بِهِ تَصِفُو مَشَارِبُهُ
فَالْآنَ أَصْبَحَ بِالتَّكْدِيرِ مَقْطُوبَا
كَلَّا وَأَيَّامُهُ الْغُرَى الَّتِي جَعَلَتْ
لِلْعِلْمِ نُوراً وَلِلتَّقْوَى مَحَارِبَا

لا ينسري الدهرُ عن شِبهِه له أبدا
ما استوقف الحجّ بالأنصاب أركوبا

تجلو مواعِظُه رَيْنَ القلوب كما
يجلّو ضياءُ سنا الصبح الغياھيا
وددتُ بقاعُ بلادِ الله لو جعلت
قبرا له فحباها جسمه طيبا

ورثاءُ ابن دريد لھذين الإمامين دليل على ما قلناه من
أن مرآتي العلماء إنما تكون لأمثالهم من أهل العلم والدين ،
وباعثها حينئذ هو التقدير والاعجاب والاعتراف لهم بالجميل
لما أسدوه للأمة من خدمة عظيمة في هدايتها إلى معالم الرشد
وفتح أعينها على مصادر النور ، وبذلك يكون الرثاء صادرا
عن شعور عميق بالفاجعة ومصوراً للفراغ الهائل الذي يتركه
هؤلاء الأعلام الراحلون في حياة الأمة العلمية والدينية إذ
قلما يُخلّفون وراءهم من يسدّ مسدّهم ويفري فريتهم .

وقال اليزيدي يرثي الكسائي ومحمد بن الحسن صاحب
أبي حنيفة وكانا قد خرجا مع الرشيد إلى خراسان فماتا في
يوم واحد بالرّيّ ، وصلى الرشيدُ عليهما وقال دفنتُ الفقه
والنحو في الرّيّ ، وهذا رثاء اليزيدي فيهما :

تصرّمت الدنيا فليس خلودُ
وما قد ترى من بهجة سيّبيدُ

سُفْنِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي خَلَتْ
فَكُنْ مُسْتَعْدًّا فَالْفَنَاءُ عَتِيدُ

أَسِيتُ عَلَى قَاضِي الْقَضَاةِ مُحَمَّدٍ
فَأَذْرَيْتُ دَمْعِي وَالْفَوَادِ عَمِيدُ

وَقُلْتُ إِذَا مَا الْخَطْبُ أَشْكَلَ مِنَّا
بَايْضَاحِهِ يَوْمًا وَأَنْتَ فَقِيدُ

وَأَقْلَقْنِي مَوْتُ الْكِسَائِيَّ بَعْدَهُ
وَكَادَتْ بِي الْأَرْضُ الْفَضَاءُ تَمِيدُ

وَأَذْهَلْنِي عَنْ كُلِّ عَيْشٍ وَلَذَّةٍ
وَأَرَّقَ عَيْنِي وَالْعَيُونُ هَجُودُ

هَمًّا عَالِمَانَا أَوْدِيَا وَتَخَرَّمَا
وَمَا لَهْمَا فِي الْعَالَمِينَ نَدِيدُ

فَحُزْنِي إِنْ تَخَطَّرَ عَلَى الْقَلْبِ خَطَرَةٌ
بَذَكَرْهُمَا حَتَّى الْمَمَاتِ جَدِيدُ

وهذه الأبيات فيها من حرارة العاطفة وجودة التعبير ما
يُغْبِرُ فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ يُضَعِّفُ شَعْرَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَا نَشِيرُ إِلَّا
إِلَى الْبَيْتِ الْآخِرِ الَّذِي يَتِمَثَّلُ فِيهِ الصَّدَقُ الْفَنِي بِأَحْسَنِ لَفْظٍ
وَأَجْمَلِ مَعْنَى . فَهُوَ يُبْرِزُ حُزْنَ الشَّاعِرِ عَلَى الْفَقِيدَيْنِ وَيَجْعَلُهُ
مُرْتَبِطًا بِالْقَلْبِ ، وَلَا يُطْلِقُهُ اِطْلَاقًا وَإِنَّمَا يُقَيِّدُهُ بِحَالَةِ الذِّكْرِ

وعدم شرود الفكر ، ففي هذه الحالة ، وهي التي تُطابق الطبيعة البشرية ، إذا خطرت على قلبه خطرةٌ من ذكر صاحبينه يتجدد حزنه ويكون كأنما فقدَهما ليتوه وساعته ، وذلك مدى العُمر وإلى نهاية الحياة . ولا أصدق من هذا الشعور ولا أبلغ من هذا التعبير .

ومن مرثي العلماء الشهيرة مرثية أبي الحسن بن الأنباري في الوزير أبي طاهر محمد بن بَقِيَّة لما صلبه عضدُ الدولة ابن بُويَّه ومطلعها :

علوُّ في الحياة وفي الممات
لحقَّ تلك إحدى المعجزات

وكان ابنُ الأنباري هذا فقيهاً صوفياً واعظاً يتعاطى الأدب ، فلذلك ذكرناه مع أدباء الفقهاء ، ومرثيته هذه إحدى ثلاثِ مرثيَّاتٍ أو أربعٍ في اللغة العربية ليس لها نظير ، وقال الصَّلَاح الصفدي فيها انه لم يُسمع بمثلها في رثاء مصلوب . وقيل ان عضد الدولة لما سمعها تمنى أن لو كان هو المرثيَّ بها ولو مع الصَّلَاح . وكفى بهذا تقريظاً لأدب الفقهاء . ونظن أننا في غير حاجة إلى إيراد شيء منها لأنها معروفة وتوجد في كل ديوان .

ومن أرق المرثي مرثية الشريف الحصني في ابن مالك النحوي التي يقول فيها :

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالكِ المفضل
وانحرافَ الحُرُوفِ من بعد ضبطٍ منه في الانفصال والاتصال
أَلَمْ يُعْترَاهُ أسْكَنَ مِنْهُ حركاتٍ كانت بغير اعتلال
يا لها سَكْنَةٌ لِهَمْزٍ قضاءٍ أورثت طُولَ مدة الانفصال
رَفَعُوهُ في نعشه فانتصبنا نصبَ تمييز كيف سيرُ الجبال
صَرَفُوهُ يا عَظُمَ ما فعلوه وهو عَدْلٌ مُعَرَّفٌ بالجمال
أَدْغَمُوهُ في التَّرب من غيرِ مثل سَالِماً من تَغْيِر الانتقال

وهي على هذا المنوال من كثرة التورية بالمصطلحات النحوية
التي يُغَرِّبُ فيها أحياناً ، ومع ذلك ، ومع ما في بعض أبياتها
من زحاف ، فإن الصَّفدي أعجِب بها وقال : ما رأيت
مرثية في نحوي أحسنَ منها على طولها ، وشهادة هذا العالم
الأديب لها قيمتها في هذا المقام . ولقد كان من أثر إعجابه
بها أن نسج على طرازها قصيدة فائقة رثى بها أثيرَ الدين بن
حيان النحوي الغرناطي المشهور منها قوله :

مات امام كان في فَنِّهِ يرى أماماً والورى من ورا
أَمْسَى مُنَادَى لليلِ مُفْرَداً فضمه القبرُ على ما ترى
يا أسفاً كان هُدًى ظاهراً فعاد في تُرْبَتِهِ مُضْمِراً
وكان جمعُ الفضل في عصره صحَّ ، فلما ان قضى كُسْراً
وعُرِفَ الفضلُ به برهْمَةً والآن لما ان مضى نُكْـسَراً

وهي طويلة مثل سابقتها ولكنها سالمة من الزحاف ، إلا
أنها في معانيها عالية عليها فالفضل للمتقدم على كل حال .
ونحن لم نروها تين القصيدتين إلا على سبيل الإحماض والمُضاهاة
لنظائرها من نظم الشعراء والا فلا يغيب عنا أن غرض
الرثاء أبعدُ شيء من هذه الصناعة اللفظية والزخارف الكلامية .

ويحسن أن نختم هذا الباب بمقطعات وأبيات في الموضوع
لأصحابنا الفقهاء بعد أن ألمعنا إلى المراثي الطويلة ، فإن في
بعضها إبداعاً وبلاغة يُستظهرُ بهما عند المقارنة ويكونان
حجة على المنكير . فمن ذلك قولُ القاضي التنوخي :

أَنْصُونُ ماءَ العينِ مِنْ بعدِ امرئٍ
قد صانَ منّا في الوجوه الماءَ
يا قبره لم تحوِ جسماً مَيّتاً
لكن حويّت مكارِماً أحياءَ

ومنه قول الزمخشري في شيخه أبي مضر :

وقائلةٍ ما هذه الدّرُ السّي
تساقطُ من عينيكِ سَمطينِ سَمطينِ
فقلتُ لها الدر الذي كان قد حشأ
أبو مضرٍ أذني تساقط من عيني

ومنه قول أبي بكر بن شَبْرين في خامس بني نصر ملوك
غرناطة :

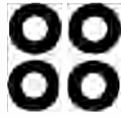
بَانَ العزاءُ فما الذي نُبدِيه
في الحزنِ إلا بعض ما نُخْفِيه
يا أيها الغادي بحثَ قلوَصَه
إيه عن الحبرِ المُرجَمِ إِيه
أودى أميرُ المسلمين فكيف لا
نأسى عليه وكيف لا نبكيه
قد كان للاسلام عَيْنَ بصيرة
فأصابَت الإسلامَ عَيْنٌ فِيه

ومنه قول أبي علي البوسي

مُصابٌ لو ان الأرض نال أديمها
لما أنبعت نهرًا ولا أنبتت زَهرا
ولو أن آفاقَ السماء أصابَهَا
لما أطلعت شمساً ولا أنزلت قَطْراً

هذه نماذجُ وألوانٌ من تعازي العلماء ومراثيهم. ليس فيها ما
يُنتقد عليهم إلا إذا انتقِدَ مثله على غيرهم من الشعراء وهي حُرِيَّة

بالإضافة إلى ما قدمناه من أقوالهم في أغراض الشعر الأخرى
أن تنفي عنهم تهمة الضعف في الإنتاج الأدبي وتكُمّ أفواهَ
المتقولين عليهم المتندرين بكلمة هذا شعرٌ فقيه ، فقد تبين
أنها من الكلام الملقاة على العواهن بغير نظر ولا تفكير ،
وإن ينبغي عليك قومك لا ينبغي عليك القمر كما
يقولُ المثل .



شعر السير أو الملاحم

هذا فن من الشعر يكاد أدب الفقهاء يمتاز به ، فيدفع الوصمة عن الأدب العربي التي يلصقها به كثير من النقاد حين يتحدثون عن خلوه من الملحمة أو من الشعر القصصي في الجملة ، وهو الشعر الذي حفلت به الآداب الأجنبية ، شرقياً وغربياً وخلد حقباً من تواريخ بعض الشعوب ومواقف بطولية لبعض القادة ، بحيث يُعدّ نشيد الأنشاد ، وسجل الأجداد ، في الأوطان التي تعتزّ بما أنتجته قرائح شعرائها الموهوبين منه . وإذا كان بعض الكتاب لا يسلمون بخلو الأدب العربي من هذا اللون من الشعر ، ويلتمسون له جذوراً في المملكات وبعض القصص الشعبية كسيرة بني هلال وسيف ابن ذي يزن ، فإنهم يغفلون عن القصائد الطوال الجياد التي نظمها أدباء الفقهاء في سيرة الرسول (ص) وأصحابه الكرام ، ومنها ما هو في الذروة من الصناعة الشعرية وبلاغة القول حتى أن الأجيال المتعاقبة من لدن قيلت هذه القصائد لم تفتأ تتغنى بها وتنشدها في المحافل التي تقام بالمناسبات المقولة فيها . وتلك مثل قصيدتي البردة والهمزية للبوصيري ، وقصيدة الوتریات لابغدادی ، فهذه القصائد وأمثالها من شعر السير

هي أحق بأن تُصنّف في شعر الملاحم من المعلقات والقصص المذكورة ، لأنها أطول نفساً وأكثر حوادث وأغنى بصور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي وإعلان رسالة الاسلام المقدسة التي أحلت العرب محل الصدارة بين الأمم ذات التاريخ المشرق والمجد العريق .

وهل تُقاس معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً بقصيدة البردة وما اشتملت عليه من فنون القول كالنسيب الذي يُرقيقُ الطباع ، والحكمة المزكية للنفس ، والإعلان عن مولد صاحب الدعوة الاسلامية (ص) وما صاحبه من الآيات والعجائب ، ما صحَّ منها وما يُروى عن طريق الروى والتجليات ، لأن المقام للخيال الشعري أكثر مما هو للتحقيق العلمي ، ثم ذكر جهاده بعد النبوة لإعلان كلمة الله وما لاقاه من المشركين من مقاومة وأذى ، واستماتة المؤمنين به في نصرته وتأييده حتى علا الحق وانتصر دين التوحيد على خرافات الجاهلية ووثنياتها . واندفع المارد العربي إلى فتوحاته وتوطيد سيادته على العالم بالقوة والعلم والدين الجديد الذي كشف الران عن القلوب وفتح العيون على الحقيقة وهدى الناس إلى الصراط المستقيم . هذه القصيدة العظيمة التي لم يملك أمير الشعراء أحمد شوقي نفسه حتى عارضها بقصيدته نهج البردة ، فجال مثل البوصيري جولات في ميدان الإشادة بالدعوة المحمدية وجهاد المؤمنين من أجل نصرتها ولكن بلغة

العصر وفكرته فكان من ضمن ما قاله فيها مفنداً للمتولين
على مشروعية الجهاد في الاسلام :

قالوا غزوتَ ورُسلُ الله ما بُعِثَتْ
لقتل نفس ولا جاووا بسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كلّ ذي خطر
تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وان تلقه بالشر ينحسِم

ويقول في حضارة الاسلام ومقارنتها بالحضارات الشرقية
والغربية :

واترك رعمسيس ان الملك مظهره
في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

دار الشرائع روما كلما ذكرت
دار السلام لها ألفت يد السلم

كيف لا تكون البردة ملحمة شعرية وذلك مضمونها
وهذا تأثيرها حتى في أكبر شاعر عربي في عصرنا الماضي ؟

أَتَكُونِ الْإِلْيَازَةَ لِهَوْمِيروسَ ملحمة لأن بطلها أخيل ، والانيادة
لفرجيل كذلك ملحمة لأن بطلها اينياس ، ولا تكون البردة
أو الهمزية ملحمة لأن بطلها محمد بن عبدالله ؟..

أخشى أن تكون بدعة فصل الدين عن الدولة تسربت أيضاً
إلى الأدب ، وزَلَّةُ إبعاد الدين عن القومية شملت حتى الشعر
ولذلك يغض كتابنا نظرهم عن هذه الأعمال الأدبية الرائعة
التي تمت إلى الدين ، والدين الاسلامي بالخصوص - بصلة
أو سبب وهذا بالإضافة إلى ترهيد بعض إخواننا السلفيين
في هذه القصائد لما تتضمنه من مبالغة غير جائزة شرعاً في
بعض المواضع ، تلك المبالغة التي نحملها نحن على توخي
البلاغة كما هي عادة الشعراء لا على مخالفة العقيدة ، أو هي
هفوة على كل حال كان من الممكن التجاوز عنها لبقاء
ما تطفح به هذه القصائد من معان سامية ومقاصد شريفة ،
حتى لا يقضي عليها عاملاً الإفراط والتفريط .

وكيفما كان الأمر فعندنا من هذا الشعر لأدباء الفقهاء
قصيدة الشقراطيسية ، ومُطَوَّاةُ ابنِ أبي الحِصَالِ المسماة
بمعراج المناقب ، وقد سبق الكلام عليهما في باب المدح ،
ولامية أبي إسحاق التلمساني التي يقول في مطلعها :

ألا في سبيل الله ما أنا قائل
ليُجَنِّى به أمنٌ وفوزٌ ونائل

وقصيدةُ الوثریات لابن رشید البغدادي وهي تسعة وعشرون
نشيداً على عدد حروف المعجم بزيادة لام الألف ، في كل
نشيد واحد وعشرون بيتاً مع التزام حرف الروي في أول
كل بيت ، وأولها من حرف الألف :

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما
على من له أعلى العلا مُتَبَوِّأً^(١)

وقصيدة الوسيلة الكبرى لمالك بن المرحل ، وهي كذلك
مرتبة على حروف المعجم وملتزمة الابتداء بحرف الروي ،
وفي كل حرف منها عشرون بيتاً ، وأولها :

إلى المصطفى أهديتُ غُرّاً ثنائي
فيا طيب إهدائي وحُسن هِدائي

ثم قصيدة المعشّرات النبوية له ، وهي على نمط الوسيلة ،
إلا أن في كل حرف منها عشرة أبيات فقط ، وأولها وقد
الترم فيه الميم ثانياً وقبل الحرف الروي :

أما لي إلى قبر النبي مُبْلَغ
سلاماً فقد أفنى الزمان ذمائي

وديوان الوسائل المتقبلة لأبي زيد الفارازي ، ويشتمل على
قصائد عشرينية بعدد حروف المعجم مفتحة الأبيات بحرف

(١) كتبنا عن البغدادي ووترياته بحثاً ألقى في مؤتمر مجمع اللغة العربية
الذي عقد في نوفمبر ١٩٦٥ .

الروي على طريقة اللزوم كسابقاتها وأولها :

أحقّ عباد الله بالمجد والعلا
نبيّ له أعلى الجنان مَبَوّأ

وهذا الديوان مطبوع مع تخميس له جيد لابن المهيب من
علماء الصحراء المغربية .

والملاحظ أن كلاً من الفازازي وابن المرحل وصاحب
الوتريات ، من أهل القرن السابع الهجري ، إلا أن أقدمهم
وفاة هو الفازازي ، فلا شك أنه مُقتدّاهم في هذه الطريقة
من النظم ، لا سيما والبغدادى صاحب الوتريات قد عاش
في المغرب وكان قدومه إليه بعد وفاة الفازازي بقليل . فغير
بعيد أن يكون اطلع على ديوانه ، وأنشأ وترياته على وزّانه ،
ويظهر ذلك من تشابه المطلعين اللذين أنشدناهما من حرف
الهمزة لكل واحد منهما . على أن وتريات البغدادى أكثر
سيرورةً وتداوُلًا بين الأدباء الذين شطروها وخمسوها
وعارضوها ولذلك ذكرناها أولاً . زد على هذا أن الفازازي
وابن المرحل هما في غالب أمرهما من الشعراء بخلاف البغدادى
فهو من الفقهاء والعلماء والوعاظ . ومع ذلك فإن في ذكر
قصائد هذين الشاعرين وإن خرجت عن شرطنا ، تنبيهاً
للباحثين إلى درسها هي وما ضاهاها من مطولات الأدباء
عموماً في هذا الباب عند التعرض لشعر الملاحم في الأدب

العربي .

وفي فنّ المقصورات عندنا مقصورةُ ابن جابر الأندلسي ،
وأولها :

بادر قلبي للهوى وما ارتأى
لما رأى من حُسْنِها ما قد رأى

ومقصورةُ الامام الصرصري ومطلعها :

ما بين قُرب وبعَاد وقلي
وبين لبتَ ولعلّ وعسى

ضاع زماني ووهت شيبتي
وصوّح المُخَضَّر منها وذوى

ومقصورةُ المكودي وقد سبق الكلام عليها في باب المدح .

ومقصورة النبھاني من أهل عصرنا وأولها :

أحبّ لي من كل ما فوق الثرى
عُربُ النّقا ، رُوحِي فِدا عُربِ النّقى

وأصحاب هذه المقصورات كلهم من أهل العلم والفقہ
إلا ابن جابر الذي يغلب أن يعد في الشعراء ، فيقال في ذكر

مقصورته ما قيل في ذكر قصائد من قبله .

وأخيراً لا آخراً عندنا في هذا الباب كذلك ميمية حمدون
ابن الحاج المسماة بعقود الفاتحة وهي أطول القصائد التي
عرفناها في الموضوع لأنها نحو ٤٠٠٠ بيت وأولها :

هَبَّتْ قَمَارِيٌّ بَسِينُ الْبَانِ وَالْغَلَمِ
تُمْلِي شَمَائِلَ أَقْمَارٍ بِذِي سَلَمِ

ويطول بنا الكلام إذا حاولنا أن نتعرض لهذه القصائد ،
وكلها من ذوات المئات ، بالنقد والتحليل ، ونقارن بينها
وبين المعلقات وغيرها ، لتبين أيها أحق بوصف الملحمة
الشعرية في مفهومها الأدبي ، ولكننا نعرض لواحدة منها
فقط ، ولتكن هي همزية البوصيري ، فنقدمها كنموذج ،
ونتناولها من حيث الشكل والمضمون بشيء من التعليق
يقفنا على محتواها وقيمتها الأدبية .

إن همزية البوصيري تتألف من ٤٥٦ بيتاً ، وبذلك
تكون وسطاً بين القصائد التي تُعدّ ألف بيت فأكثر والتي
جاوزت المائة ولم تصل إلى هذا العدد . وهي من بحر الحفيف ،
وهو بحر مِطْوَاغ سواء من الناحية العروضية أو الإيقاعية ،
ولذلك سلمت من الحشو في نظمها وخضعت من حيث التلحين
لعدة نغمات موسيقية كنغمة الاستهلال والحجاز وعراق

العجم ورمل الماية ورصد الذيل وغريبة الحسين والمشرقي
والاصبهان وغير ذلك . أما قافيتها فهي الهمزة المضمومة ،
وقد أشبهت فيها وفي وزنها معلقة الحرث بن حليزة ،
واقبس البوصيري منها عَجَزَ مطلعها « رَبِّ ثَاوٍ يُمَلِّ مِنْهُ
الثواء » وضمته بعض أبياته ، وتزيد الهمزية على المعلقة
٣٧٢ بيتاً ، إذ أن عدد أبيات هذه ٨٤ بيتاً فقط .

تبتدىء الهمزية بهذا البيت :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء ؟

وهو بيت بليغ جداً ، وإن شئت قلت مبالغ ، فإنه وإن
كان يُلمَح إلى قصة المعراج ، إلا أن بعض العلماء يرى أن
لو كان لم يتعرض لذكر الأنبياء بهذه الصورة ، لنهيه (ص)
عن تفضيله على غيره من الأنبياء ، ومن ثم قال العلامة
ابن زكري في مطلع همزيته التي عارض بها همزية البوصيري :

ربَّنَا للنبي منك الجزاء تقتضيه الأرواح والأجزاء

أما النبھاني الذي له أيضاً معارضة الهمزية بمطوَّلة تبلغ
ألفَ بيت ، فقد جرى على سنن البوصيري إذ قال في مطلعته :

نورك الكلّ والورى أجزاء يا نبياً من جُنْدِه الأنبياء

ويتمادى البوصيري في مدحه للنبي (ص) على هذه

الطريقة ، طريقة الخطاب والمقارنة متخلصاً بذكر تنقله في
الأصلاّب الرفيعة والأرحام الطاهرة وبشارة الأنبياء به عبّر
العصور إلى مولده الشريف وما ظهر فيه من العجائب .

ليلة المولد الذي كان للدّين سرورٌ بيّومه وازدهاء
وتوالى بشريّ الهوائيف أن قد ولد المصطفى وحقّ الهنّاء
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء

إلى غير ذلك من الآيات وكيفية ولادته ، ثم رضاعه في
بني سعد ، وما رآته مُرضعته منذ حل في بيتها من الخير
والبركة إلى أن فصلته بسبب خوفها عليه لما وقع له من معجزة
شق صدره الشريف :

وأنت جدّه وقد فصلته وبها من فصّاله البرحاء
إذ أحاطت به ملائكة الله فظنّت بأنهم قرناء
فارقته كرهاً وكان لدينها «ثاويّاً لا يُمَلُّ منه الثّواء»
شقّ عن قلبه وأخرج منه مُضغّةً عند غسله سوّاء

ويذكر البوصيري بعد ذلك نشأته المثالية وتأهبه لتلقي
أمانة الرسالة وزواجه بالسيدة خديجة بدعوة منها كما يقول ،
لما رآته فيه من العفة والتزاهة والحياء ، وكانت ذات خبرة
ونظر سديد ، فلما جاءه الوحي وهو في بيتها أرادت أن

تؤكد من أمره فكشفت عن شعرها لأنها علمت من ابن
عمها ورقة بن نوفل ، وكان نصرانياً أن الملائكة لا تحضر
محلاً فيه امرأة مكشوفة :

وأناه في بيتها جبرئيل
ولذي اللب في الأمور ارتياء
فأماطت عنها الحمار لتدري
أهو الوحي أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأس جبرئ
لُ فما عاد أو أعيد الغطاء
فاستبان خديجة أنه الكنة
زُ الذي حاولته والكيمياء

ويصف البوصيري قيامه (ص) بالدعوة ، وما لاقاه
من المشركين من التكذيب والأذى ، وتأمّرهم عليه ، وكتابة
الصحيفة التي قاطع بها الملأ من قريش قومه بني هاشم وبني
المطلب ، ثم نقضها وتردد أمره بين مكابدة مشاق الدعوة
وترية المؤمنين القلائل الذين اتبعوه ، إلى أن انتشرت دعوته
في المدينة المنورة ، ومهد ذلك إلى هجرته إليها ، وهو لا
يذكر هذه الأحداث بحسب ترتيبها الزمني بل بحسب المناسبة
التي يقتضيها النظم وفن القول كأن يشبه حدثاً بآخر أو

يزاوج بين الأحداث للمشاكلة الكلامية ، مما يجعل الصناعة الشعرية والأساليب البيانية هي المتحكمة لا سرّد الوقائع ومُؤاكلة الزمن . ومما يزيد في القيمة الأدبية للهمزية أن البوصيري يخلّل هذه الأحداث بذكر المعجزات التي صحبتها أو ناسبتها مما رُوي في الصّحاح أو كُتِب السّيرة وحتى المواليد منها ، مُخيّلاً بها ومُضفياً على عمله حلّة الاعجاب والابداع ، وهذا إلى ما يُقحّمه أثناء الاخبار ويشيره من عواطف ومشاعر تناسب الموقف وتشدّ النظر إلى موضع العبرة فيه . فهو يقول في مضايقة قريش له :

وَيَحْ قَوْمَ جَفَوْا نَبِيًّا بِأَرْضِ أَلِفَتْهُ ضَبَابُهَا وَالظُّبَاءُ
وَسَلَوَهُ وَحَنًّا جَذَعَ إِلَيْهِ وَقَلَوَهُ وَودَّهَ الْغُرَبَاءُ

ففي هذين البيتين يلتقي المزاج الرومانسي للشاعر بالأحداث التي وقعت للنبي على سبيل المعجزة فيُكيّفها بشعور العطف والتأثر ويقدم لنا صورة شعرية مؤثرة لا وقائع من السيرة يحتاجُ بيانها إلى عدة صفحات .

وبعد هذا القِسْم الطويل يدخل الناظم في ذكر أوصافه (ص) الخلقية والخلقية فيفيض في ذلك ويتفنن ما شاء ، وهي أوصاف لا تليق إلا بمقام النبوة ومن ضِمْنها هذا البيت الذي يشتمل على معنى فريد :

كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو
عُ عَلَى قَلْبِهِ وَلَا الْفَحْشَاءُ

ثم يخص بعض أطرافه الشريفة بالوصف فيقول في وجهه
الكريم :

لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَا وَجْهِهِ
زَالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رَأَاهُ الشَّقَاءُ

ويوالي الوصف بما يليق بالوجه من جمال حسي ومعنوي
ومخايل النبل والكرم ، ولا تغفل عما في قوله لَيْتَهُ خَصَّنِي
من دلالة على الطبيعة الأدبية والرومانسية لقصيدة الهمزية ،
فهي ليست كتاباً أو نظماً للسيرة ولكنها عمل فني ذاتي موضوعه
السيرة .

ويقول في وصف يده عاطفاً على قوله بروية وجهه :

أَوْ بِتَقْبِيلِ رَاحَةٍ كَانَ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ أَخَذَهَا وَالْعَطَاءُ

ويتابع وصفها بما صدر عنها من أعمال كبيرة ومعجزات
خارقة للعادة . ثم يختم بوصف قدمه فيقول :

أَوْ بِلَثْمِ التُّرَابِ مِمَّنْ قَدَّمَ لَا
نَتَّ حَيَاءً مِنْ مَشْيِهَا الصَّفَوَاءُ

وَيُلَمَّ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ مَعْجَزَاتٍ وَمَسَاعٍ حَمِيدَةٍ لَا أَرَى
بَدَأَ مِنْ رِوَايَةِ بَيْتٍ آخَرَ مِمَّا يَقُولُهُ فِيهَا ، لِأَنَّ إِعْجَابِي بِهِ لَا
يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ وَهُوَ هَذَا :

فَهِيَ قُطْبُ الْمِحْرَابِ وَالْحَرْبِ كَمِ دَا
رَتْ عَلَيْهَا فِي طَاعَةِ أَرْحَاءِ

وَهُوَ يَقْصِدُ بِالطَّاعَةِ هُنَا الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ ، فَفِيهِ رَدُّ الْعُجْزِ
عَلَى الصَّدْرِ بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ .

وَيَدْخُلُ الْبُوصِيرِيُّ أَثَرَ ذَلِكَ فِي ضَرْبِ آخِرٍ مِنَ الْكَلَامِ وَهُوَ
فَتْحُ بَابِ الْجِدَالِ وَالْمُنَاقَشَةِ مَعَ الْكُفَّارِ ثُمَّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى
وَيُرَدُّ مَطَاعْنُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ فَيَقُولُ :

عَجَبًا لِلْكَفَّارِ زَادُوا ضَلَالًا
بِالَّذِي لِلْعُقُولِ فِيهِ اهْتِدَاءٌ

وَهَذَا الْقِسْمُ طَوِيلٌ يَكْفِينَا أَنْ نَحِيلَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَخْتَمُهُ
بِالْكَلَامِ عَلَى الْأَحْلَافِ الَّتِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْقِدُونَهَا مَعَ يَهُودِ
الْمَدِينَةِ لِمُقَاوَمَةِ الدِّينِ الْجَدِيدِ ، وَمَا جَرَّتْ عَلَيْهِمَا مَعًا مِنَ الْوَبَالِ ،
وَكُلَّ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا ، فَلَا تَظُنُّ أَنَّهُ مَجْرَدُ تَسْجِيلٍ
لِلْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَزَادَ فِي طَرَاةِ هَذَا الْقِسْمِ أَنَّهُ كَادَ
يَكُونُ حِوَارًا كُلَّهُ ، يَعْتَمِدُ فِيهِ الشَّاعِرُ عَلَى الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ
مِنْ غَيْرِ اخْتِلَالٍ بَلُغَةِ الشَّعْرِ وَالْبَيَانِ .

ويُلي ذلك الكلامُ على فتح مكة وانهايار مقاومة المشركين
له ، وعفوه عن قريش وانتصار الاسلام :

فعفا عفوَ قادر لم يُنغص ٥ عليهم بما مضى اغراء
وإذا كان القطعُ والوصل لا ٥ تساوى التقريب والاقصاء
ثم يقول البوصيري بعد ذلك :

النبيّ الأُميّ أعلمُ من أس ٥ ند عنه الرواة والحكماء
وعدتني ازدياره العامَ وجنّا ٥ ومنّت بوعدھا الوجنّاء
ويمضي في وصفه ناقته ورحلته إلى الحجاز والمراحل التي
قطعها من مصر إلى مكة فالمدينة وأعمال الحج والزيارة حين
يقول :

فحططنا الرحال حيث يُحطّ ال
وزر عنا وترفع الحوَبَاء
وقرأنا السلامَ أكرمَ خلق ال
٥ من حيثُ يُسمَع الإقراء
وذهلنا عند اللقاء وكم أذ
هل صَبّاً من الحبيب لِقَاء
ووجمنا من المهابة حتى
لا كلامٌ منا ولا إيماء

ويدخل البوصيري بعد ذلك في قِسْم يمكن أن نسميه قسم
 المناجاة فيخاطب النبي مُقْسِماً عليه قَسْماً أدبياً ببعض صفاته
 ومعجزاته التي لم يسبق له ذكرها وبأصحابه الكرام ، الخلفاء
 الراشدين وبقية العشرة المبشرة وعميه حمزة والعباس وسبطيه
 الكريمين وأمهما الزهراء ، سائلاً منه الشفاعة والأمن يوم
 الفرع الأكبر والنجاة من العذاب إلى آخره ، مما لا يُسأل
 عندنا إلا من الله عزّ وجل . ولكننا نقول مرة أخرى أن
 الرجل وإن هفا هذه الهفوة ، فسبيله في ذلك سبيلُ الأدباء
 الذين تحملهم المبالغة في المدح على الوقوع في بعض المخالفات .
 ومن ثم قلنا في قَسْمِهِ هذا أنه قَسَمَ أدبي حتى لا يُورد عليه
 أن القَسَم لا يكون إلا بالله . وعلى أي حال فقد رقق البوصيري
 في هذا القسم غاية الرقيق ، وتوسل بالطف العبارة ، وأشفق
 من ذنبه واعترف بتقصيره ، وأعرب عن ذات نفسه بما لا كفاء
 له في الحسن والبلاغة والانسجام . واليك قوله في أوله :

يا أبا القاسم الذي ضِمنَ إقسا
 مي عليه ، مدحٌ له وثناء

بالعلوم التي عليك من الآ
 ه بلا كاتب لها ، إملاء

ومسير الصبّا بنصرك شهرا
 فكأن الصبّا لديك رُخاء

وقوله في آل البيت :

آل بيت النبي طبتُم فطابَ الـ
مدحُ لي فيكم وطاب الرثاء

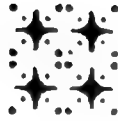
أنا (حَسَّانُ) مدحكم فإذا نُحـ
تُ عليكم فإنني (الحنساء)

وقوله متضرعاً :

أهٍ مما جنيتُ إن كان يغني ألفٌ من عظيم ذنب وهاء
أرتجي توبةً نصوحاً وفي القلب نفاق وفي اللسان رياء
ومتى يستقيم قلبي ولنجسم اعوجاج من كبرتني وانحناء

هذه هي الهمزية في خطوطها العريضة وأغراضها المتنوعة ،
أفلا يرى القارئ معي أنها من أجمل شعر الملاحم أو الشعر
القصصي على العموم ، ومع ذلك فإني لا أرى لزاماً أن يقلد
الأدبُ العربي الأدبَ الأجنبي في كل خصائصه ومميزاته
وأسمائه واصطلاحاته ، فأفضلُ أن نطلق على هذا اللون من
الشعر ، اسم شعر السير ، ونجعله في مقابل شعر الملاحم
عند غيرنا ، على أن نُبرزه ونُحسِّن عرضه ونُدخله في
عداد الفنون الشعرية ولا يبقى عرضة للاهمال وعدم الاحتفال .
وما قيل في همزية البوصيري يقال في بُردته وفي بقية

القصاصد التي ألمعنا إليها وغيرها مما لم نذكره ، فإنها كلها غُرر
ودُرر من هذا الفن الشعري الجميل ، وأما قبلُ وبعدُ
فإنها من أدب الفقهاء الذي يزري به من يُرسلون الكلام على
عواهنه ، وهو أحق أن يكون مفخرة للأدب العربي وجوهرة
لامعة في تاجه الوضاء .



فنون شتى

ويشتمل أدب الفقهاء على أغراض أخرى وفنون شتى من القول ، غير الموضوعات الشعرية الأساسية التي سبق الكلام عليها ، وبعضها مما يتضمن معاني وصوراً قلما نعثر عليها في شعر الأدباء من غير أصحابنا ، وبعضها الآخر مما يحتوي على صنعة أدبية فريدة ، وطرارز بديع من الصياغة الشعرية لم تتحدث عنه كتب هذا الفن إلا قليلاً . ونرى من تمام العناية بهذا الأدب أن نُلِمَّ من ذلك بنماذج تمثل ما للفقهاء من اهتمامات أدبية تختلف مضموناً وشكلاً عن المساطر والمجالات المعروفة في عالم الأدب ، وأقل ما يستنتج منها هذا الأفق الواسع للروية الشعرية عند الفقهاء ، الذي ينفي عنهم كل ما قيل في ضعف انتاجهم الأدبي ، والشعر منه بخاصة .

وأول ما نبدأ به قولهم في نقد الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والتنديد بالحكام الجائرين ، وصنائعهم من أعداء الملة والدين ، وفي هذا الباب يجب أن نتذكر ما لشعراء الحوارج ، وأكثرهم من الأئمة الأعلام ، من أشعار تتمثل فيها روح الثورة على الظلم والاستبداد ، والحكم المطلق ، والحياة العابثة التي كان المتسلطون يشيعونها في الناس ، ولكننا لا نورد شيئاً من هذه

الأشعار لاشتهارها أولاً ، ولأنها ثانياً تعبر عن نزعة سياسية خاصة لسنا بصدد التعرض لها في هذا البحث الذي انما يعنى بالناحية الأدبية في أعمال الفقهاء ورجال العلم .. على أن أشعار الحوارج هي باتفاق نقدة الأدب في الذروة من البلاغة وحسن الأداء ، فما كان منها لفقهاءهم فهو حجة لأدبهم وأدب الفقهاء بعمامة . ونشير فقط إلى نماذج متداولة من أقوال فقهاءنا المعروفين في هذه المقاصد ، وهي التي تعتد بقوة الكلمة وحدها ، ولا تعتبر قوة غيرَها وسيلةً إلى الاصلاح على طريق الدعاة والمرشدين ، والأدباء الملتزمين فمن ذلك ما اشتهر من قول أحد متقدمي أهل العلم :

هذا الزمانُ الذي كنا نحاذِرُه
في قول كعب وفي قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم يحدثْ لهُ غَيْرَ
لم يُبْك مِيت ولم يُفْرَح بمولود

وهذان البيتان هما مما جرى على كل لسان ، وأصبحا مثلاً مضرورياً في فساد الزمان وأهله ، وفُشُو المنكر ، وانهلال المجتمع ، حتى انه قلما يتحدث متحدث أو يكتب كاتب في موضوع التربية الدينية والحُلُقِيَّة ولا يُنشدُهما ويتمثل بهما وهما على ما نرى من متانة الحوك وشدة التأثير بحيث ينفذان إلى أعماق النفس ويخمران المشاعر بفيض من الأسى

والحسرة ، وذلك غاية ما يُتوخى من أية تجربة شعرية ناجحة .
وكعبُ المذكور فيهما هو كعبُ الأحبار تابعي مشهور وابن
مسعود هو الصحابي الجليل عبدالله الهذلي ، وتُروى عنهما
أقوال في فساد الزمان وتغيير المنكر .

ومنه قول أبي الفرج بن هند وفي ملك ليس له من الملك
إلا الاسم :

لنا ملك ما فيه للملك آلةٌ
سوى أنه يوم السلامِ مُتَوَجِّ

أقيم لإصلاح الوري وهو فاسد
متى يستقيم الظل والعودُ أعوج

ولا نجد لشاعر من الشعراء مثلَ هذين البيتين في تصوير
ما آل إليه الأمر في بعض العصور من تنصيب إحدى الدُمى
على العرش ، وإطلاق اسم الملك عليها ، واعتماد هذا الملك
بالتحية وسائر مظاهر الملك ، وادعاء أنه سيُصلح البلاد
والعباد ، مع أنه في نفسه فاسد ، فكيف يأتي الإصلاح من
الفساد ، والظل إنما يمثل الشاخص ؟ فإذا كان هذا مائلاً
فإن ظله لا يكون إلا مثله . والتعبير بالاستقامة والاعوجاج
في الشعر أبلغ مما فسرنا به مثله المضروب ، وذلك مما زاده
بلاغة وقوة حجة .

إن مثل هذا الملك كثيراً ما لهج الشعراء بمدحه ونوّهوا
بأياديّه ، ومن هنا يُعلّم صدق التجربة الشعرية عند أصحابنا
العلماء ، فهم ينظرون للصالح العام . ولا يُغفونهم عطاء
الملوك فيبتذلوا الكلمة ويتآمروا مع المتآمرين .

ولأبي بكر الطرطوشي يخاطب الملك الأفضل شاهنشاه :
يا أيها الملكُ الذي جودُهُ يطلبُهُ القاصد والراغب
ان الذي شَرُفَتْ من أجله يزعمُ هذا أنه كاذب

وقصة البيتين كما حكاهما القرافي (١) أن الأفضل غضب على
الطرطوشي غضباً شديداً بتحريض وزير له ذمّي فأمر
بإحضاره عازماً على عقوبته ، فلما دخل عليه ورأى الوزير
المذكور بجنبه خاطبه بدينك البيتين ، ففهم الأفضل دسيسة
الوزير وأقامه من مكانه وأجلس فيه الشيخ وأكرمه ...
والوزراء والمستشارون من هذا القبيل بحكم الفَنّة والخبرة ،
كم جرّوا على البلاد من مَحَن ، وكم أثاروا من فِتَن ، ولم
يُوحّد من ينه على خطرهم إلا فقيه شاعر هو الطرطوشي .

ولأبي عبدالله بن جُزَيّ في طيب يهودي :

ورُبَّ يهودي أتى مُتطبّباً

ليأخذَ ثاراتِ اليهود من الناس

(١) أورد الطرطوشي الحكاية في كتابه سراج الملوك باختلاف يسير ،
ناسباً لها إلى رجل ذي عقل وأدب فلعله كنى بذلك عن نفسه ؛ وهي في ابن
خلكان أيضاً منسوبة إليه .

إذا جسّ نبضَ المرءِ أو دَوى بنفسه
سريعاً ، ألم تسمعُ بفتكة جَسّاس

وهذه صورة أخرى تجسّم مكر اليهود الذين يتخذون العلم وسيلة لاستغلال ضعف الانسان والتآمر عليه ، وهي صورة طبق الأصل مما توصي به بروتوكولات صهيون ، اليهود ، أبرزها العالم ابن جُزَيّ قبل نشر هذه البروتوكولات بقرون ، ودل بذلك على بُعد نظر وشدة انتباه إنما يوجدان عند أهل العلم ، ثم سجّلها ظاهرةً عنصريةً بغیضةً في بيتين من الشعر على جانب كبير من الفصاحة والبيان .

وشعرهم في فساد المجتمع وانتقاد الحكّام كثير ، وقد ذكرنا منه تفاريقَ فيما مضى من التراجم كترجمة عبدالله ابن المبارك وغيره فلنكتفٍ منه بهذا القدر .

ومن الموضوعات العزيزة التي نلتقي بها كثيراً في شعر الفقهاء محاربة الشعوذة والتدجيل وتنمية الوعي ، والشعور بقيمة العلم والعقل ، مما أثر دائماً في رفع المستوى الفكري والحضاري لعامة الشعب ولم يتركهم فريسة الأوهام والخرافات .

فمن ذلك قول محمود الورّاق في المراثين من الزهاد :

أظهروا للناس نُسكاً وعلى الدينار داروا

وله صلّوا وصاموا وله حجّوا وزاروا
لو رأوه في الثريا ولهم ريشٌ لطاروا

وقول آخر في العلماء المزيّفين :

قلْ للذين تكلفوا زيّ التقى
وتخيّروا للدرس ألفَ مجلد

لا تحسبوا كَحَلَّ العيون بحيلة
إن المها لم تكتحل بالاثمد

ومنه لأمية بن عبد العزيز بن أبي الصّلت العالم الطيب الأديب
في بطلان التنجيم واعتماد الطالع :

لا ترُجُ في أمرِكَ سعدَ المُشترِي
ولا تخف في قوّتهِ نحسَ زُحَل

وارجُ وخفَ ربّهُما فهو الذي
ما شاء من خير ومن شرّ فعَل

ولغيره في المعنى :

مَنْ كان يخشى زُحلاً أو كان يرجو المُشترِي
فلأنني منه ولو كان أبي الأدنى بَرِي

ولآخر مصححاً العقيدة في ذلك :

خَبِّرْنِي عَنِ الْمُنْجِمِ أَنِّي كافر بالذي قضته الكواكب
عالم أن ما يكون وما كان ن قضاءً من المهيمن واجب

ولآخر مُبيناً الغاية التي تُتوخى من الرصد :

ليس للنجم إلى ضر ولا نفع سبيل
إنما النجم على الأوليات والسمت دليل

ولأبي بكر الزبَيْدِي اللغوي وارتكب فيه المذهب الكلامي
من البديع :

يقول المنجم لي لا تَسِرْ فإنك ان سرتَ لُقِيتَ شراً
فإن كان يعلم أنني أسير فقد جاء بالنهي ظُلماً وجوراً
وإن كان يجهل أنني أسير فجهلُ العواقب أولى وأحرى

ولآخر يخاطب أحد الملوك وقد نهاه مُنجمُه عن الغزو :

دع النجوم لِطَرَفِيْ بِعِشْ بِهَا
وَقُمْ لَوْقَتِكَ وَانْهَضْ أَيُّهَا الْمَلِكُ

ان النبي وأصحاب النبي نهوا
عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

ومنه للشيخ أحمد زرّوق في التنبيه على نوع آخر من الشعوذة
وهو الاشتغال بالكيمياء واستخراج الكنوز :

كافُ الكنوز وكافُ الكيمياء معاً
لا يُوجدان فدع عن نفسك الطمعاً
وقد نحدث أقوامٌ بأمرهما
وما أظنهما كانا ولا وقعا

وغني عن البيان ما في هذه الأشعار من تنوير للعقول
وتمحيص للحقائق ، فإذا كان بعض الشعر ، وخاصة هذا
الذي يستعين بالمتولوجيات وأساطير الوثنيين ، قد يزيد الناس
عمىً ويعودُ بهم في حافِرة الجاهلية الأولى ، فإن هذه الأشعار
تنبه الغافلين ولا تدع الجهل يستبد بأوساط الناس ، لأنها
دعوة إلى التحرر من عبودية الدجالين والمشعوذين ، ونبذ
الأفكار الرّجعيّة والتّرّهات الباطلة . وهذا المحتوى الانساني
الرفيع إلى النظم البياني البديع ، هو الذي جعلنا نسميها
أشعاراً ونعدّها في خاصّ الحاصّ من أدب الفقهاء . وكان
بودنا أن نقف عند كل قطعة منها ونُبّرز ما فيها من صدق
التجربة وجمال الأداء ، ولكننا رأينا ذلك يطول فضربنا عنه
صنحاً مكثفين بالإشارة إلى مُقارَنة البيتين اللذين يخاطب بهما
صاحبُهما الملك المتوقف عن الغزو لنهي منجمه له عنه ،
بالآيات الأولى من بائية أبي تمام التي يمدح بها المعتصم لما

فتح عمورية وهي :

السيفُ أصدَقُ أنباءٍ من الكتب
في حدّه الحدّ بين الحدّ واللعب
بيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائف في
متونهنّ جلاءُ الشك والريب ...

فهذه المقارنة تظهر أن نفَس الشاعر وإن كان أطول وأقوى ، إلا أن بيتي صاحبنا الفقيه يكتسيان حلةً من الوُضوح وقُوّة الحجّة ليست لأبيات أبي تمام ، ومع ذلك فهي أسير وأشهرُ لمكانة الشاعر ، ومكانة الممدوح ، ومكانة المدينة المفتوحة وما كان لفتحها من صدى بعيد في البلاد حتى لقد سماه أبو تمام فتحَ الفُتوح . على أن من تنمة حكاية البيتين المذكورين فيما يُروى أن الملك المخاطب بهما نهض إلى حرب عدوه فانتصر عليه وظفر به ظفراً مبيناً ، تماماً كما وقع في عمورية .

ومن طريف أدب الفقهاء ما يقولونه في وصف الحياة العلمية والانقطاع إلى الدرس والتحصيل واغترباطهم بذلك واعتباره أعظم مُتعة روحية تقر بها أعينهم وتُغنيهم عن كل متعة مادية يشتغل بها غيرُهم حتى أن بعضهم جعل اللذة الحقيقية هي لذة المعرفة كما قال ابنُ السبكي في جمع

الجوامع : (واللذة حصرها الامام (١) والشيخ الامام (٢) في
المعارف) وهكذا نجد أحدهم وهو أبو سليمان الخطابي
في برّجه العاجي يقول مستهيناً بالدنيا وما فيها :

أُنِسْتُ بوحدتي ولزمتُ بيتي فدامَ الأُنسُ لي ونما السرور
وأدبني الزمانُ فما أبالي هُجِرْتُ فلا أزار ولا أزور
ولستُ بسائلُ ما عشتُ يوماً أسار الجندُ أم ركبَ الأمير

ويجب أحمد بن فارس اللغوي مَنْ سألَه كيف أنت ؟
مُظهِراً غاية الاعتزاز بالعلم :

وقالوا كيف أنت فقلت خير تُقضى حاجةٌ وتفوتُ حاجُ
نديمي هِرتي وأنيسُ نفسي دفاتيري ومعشوقي السراجُ

ويَعتبر القاضي أبو الحسن الجرجاني لذةَ العيش هي
القراءة قائلاً :

ما تطعمتُ لذةَ العيشِ حتى صرتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعزَّ عندي من العلم فما أبتغي سواه أنيسا

أما محمد بن هرون الدمشقي فإن قرءه عينه أن تتوفر له
أدوات الكتابة الكافية كما يقول :

(١) امام الحرمين أبو المعالي الجويني .

(٢) والد ابن السبكي .

لَمَحْبَرَةٌ تَجَالِسُنِي نَهَارِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْسِ الصَّدِيقِ
وَرَزْمَةٌ كَاغْدُ فِي الْبَيْتِ عِنْدِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِدْلِ الدَّقِيقِ

ويقول عبد السلام جَسَّوس في فضل أهل العلم :

إِذَا مَا اعْتَرَزَ ذُو جَهْلٍ بِمَالٍ وَعُظِّمَ فِي نَفُوسِ الْجَاهِلِينَا
فَأَهْلُ الْعِلْمِ أَعْلَى النَّاسِ قَدْرًا وَأَعْظَمُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَا

ويقول غيره في رضى العلماء بَقِسْمَتِهِمْ :

رَضِينَا بِالْعُلُومِ تَكُونُ فِينَا مُخْلَدَةً وَلِلْجَهَالِ مَالٌ
فَإِنَّ الْمَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيبٍ وَأَنَّ الْعِلْمَ بَاقٍ لَا يَزَالُ

ويحسم آخر الخلاف في المفاضلة بين أهل العلم وغيرهم
فيقول :

مَا النَّاسُ إِلَّا الْعَالِمُونَ حَقِيقَةً وَسِوَاهُمْ مُتَطَفِلُونَ فِي النَّاسِ

ومما قاله الجاحظ في لقاء أهل العلم :

يَطِيبُ الْعَيْشَ أَنْ تَلْقَى لَبِيبًا غِذَاهُ الْعِلْمُ وَالرَّأْيُ الْمَصِيبُ
فَيَكْشِفُ عَنْكَ حَيْرَةَ كُلِّ جَهْلٍ وَفَضْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ الْأَرِيبُ
سَقَامُ الْحَرَصِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طِبِّيبُ

وللقاضي عيَّاض في تقرُّبِ أهل العلم وبركةِ اجتماعهم :

ولله قومٌ كلما جئتُ زائراً
وجدتُ قلوباً كلّها ملئتُ حينما

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل فضيلة
ويزداد بعضُ القوم من بعضهم علماً

وذيلَه أبو الحسن الرعيّني فقال :

أولئك مثلُ الطيب كلّ له شذّي
ومجموعه أذكى أريجاً إذا شُمّا

وزاد عليه أبو بكر بن عتيق اللاردي :

تعاطوا كووس العلم في روضة التقى
فكلّهم من ذلك الريّ لا يظنّما

هذا جو من الحياة السعيدة المائيّة بالغبطة والسرور ورضا
النفس وطمأنينة القلب ، يعيش فيه الفقهاء والعلماء معترّين
بما أوتوه من شرف الحكمة وما خصوا به من مزية المعرفة ،
فهم في عالم طُوباوي لا يرضون به بديلاً ، ومهما تظاهر
أهل الجاد والمال بتظاهر العظمة والعيشة الرخية ، فإن ذلك
لا يكبر في أعينهم ولا يستهويهم ، لأنهم يرون أنّ ما هم فيه

من مُتَعَةٍ رُوحِيَّةٍ هُوَ العِيشَةُ الرَاضِيَّةُ والحَيَاةُ الكَرِيمَةُ الَّتِي لَا
مَعْنَى لِلوُجُودِ بِدُونِهَا . وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الصَّدَدِ ، لَوْ
يَعْلَمُ الْمَلُوكُ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْعَيْشِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ .
وَالْأَشْعَارُ الَّتِي أوردناها ، وَهِيَ قُلٌّ مِنْ كَثْرٍ ، تَعْبِرُ عَنْ
هَذَا الْمَعْنَى أَصْدَقَ تَعْبِيرٍ ، فَلِذَلِكَ قُلْنَا فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ أَنَّهُ
مِنْ طَرِيفِ أَدَبِ الْفُقَهَاءِ .

وَمِنْ لَطَائِفِ أَدَبِهِمْ أَوْصَافٌ وَصُورٌ يُبْرَزُونَ فِيهَا الْمَعْقُولُ
بِهَيْئَةِ الْمَحْسُوسِ وَيُبَسِّطُونَ فِيهَا الْمُرَكَّبَ حَتَّى يُزَايِلَهُ
الْغَمُوضُ ، وَذَلِكَ نَتِيجَةُ لَتَعُودَهُمْ عَلَى الدَّرْسِ وَتَوْضِيحِ
الْمَسَائِلِ ، فَمِمَّا نَذْكُرُهُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ ابْنِ الْمُعَافَى مَجَسِّمًا
نَتِيجَةَ الْعَجْزِ وَالتَّوَانِي :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَجْزَ زَوْجَ بَنْتِهِ
مِنْ ابْنِ التَّوَانِي ثُمَّ سَاقَ لَهَا مَهْرًا
فِرَاشًا وَطِيبًا ثُمَّ قَالَ لَهَا اتَّكِبِي
قُصَارَاكُمَا لَا شَكَّ أَنَّ تَلِدَا فَقَرَا

وَقَوْلِ آخَرَ مَفْضِلًا الْحَلِيمَ عَلَى الْعَقْلِ بِحُجَّةٍ كَلَامِيَّةٍ :

حَلِيمٌ الْحَلِيمُ وَعَقْلٌ الْعَاقِلُ اخْتَلَفَا
مَنْ الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرْفَا

فالحلمُ قال أنا أحرزتُ غايته
والعقلُ قال أنا بي اللهُ قد عُرِفَا
فأنصح الحلم إفصاحاً وقال له
بأيِّنا الله في قرآنه اتَّصَفَا
فبانَ للعقل أنَ الحلم سيِّدُهُ
فقبَّلَ العقلُ رأسَ الحِلْمِ وانصرفَا
وقول آخر يصف بليداً :

لو قيل كم خمسٌ وخمسٌ لارتأى
يوماً وليلته يعدّ ويحسبُ
ويقولُ مُعضِلةً عظيمٌ أمرُها
ولئن فهمتُ فإن فهمي أعجب
حتى إذا خَصَرْتُ أناملَ كفه
عدّاً وكادت عينُهُ تتصوَّبُ
أرَبِّي على نَشْرِ وقال ألا اسمعوا
قد كدتُ من فرح أجنّ وأطربُ
خمسٌ وخمسٌ سنة أو سبعة
قولان قَالهما الخليل وثعلب
وقول آخر في مناظر مُراوغ :

ما لي إذا ألزمتُه حجة قابلتي بالضحك والقهقهه
إن كان ضحكُ المرء من فقهِه فالذِيبُ في الصحراء ما أفقهه

وقول أبي حيان في مثله :

وإذا جلستَ إلى الرجال وأشرقت
في جوِّ باطنيك العلوم الشرْدُ

فاحذر مُنَاطرةَ الحسود فإنما
تغتاظُ أنت ويستفيد ويحجد

ولانصور الفقيه في ذم الحسد بطريقة الجدل :

ألا قلْ لمن ظلَّ لي حاسدا أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسدت عليك وجوه الطلب

ولغيره في تمثيل الرزق :

مثلُ الرزق الذي تطلبه مثلُ الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مجتهدا وإذا وليت عنه تبعك

ولآخر مُلمِّحاً لجنس الحقيقة الانسانية في تبرير تكافؤ
الأفراد وإن اختلفت حيياتهم :

إذا سُورَكَتَ في أمر بدون فلا يكُ منك في هذا نُفور
ففي الحيوان يجتمع اضطرابا أرسطاليسُ والكلبُ العقور

ولآخر فيما يخالف ذلك :

وللزنبور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحةٌ وخَفَقُ
ولكن بين ما يصطاد بازٍ وما يصطاده الزنبور فَرَقُ

وشعرهم من هذا القبيل كثير فلا نطيل به ، لا سيما ونحن
نكتبه في الغالب من حفظنا ولا نستحضر قائله فلا نحب أن نتورط
فيما لا يكون من شعرهم ، وإنما نثبت ما تحققنا منه وشككنا
في صاحبه ، أو ما دل بصياغته على أنه من بضاعتهم ، وفوق
جهدك لا تُلَام .

وبعد هذه الأمثلة من المعاني والصور الفريدة التي عُنِي
بها أدب الفقهاء إلى جانب الموضوعات الأدبية الرئيسية ،
نورد نماذج من كلامهم الذي اعتمدوا فيه صناعة البديع
والمحسنات اللفظية لنرى ابداعهم في هذا الفن أيضاً ، بل
تصرفهم فيه بما يدل على أن الرؤية الشعرية عندهم أوسعُ من
أن تحدّها الأشكال والعبارات ، وبما أن هذا الباب واسع
فسنقتصر منه على نوع واحد هو التضمين .

فالتضمين وهو اقتباس بيت أو شطر من كلام شاعر سابقٍ

مع حسن تأت يجعله ينسجم وكلام المقتبس حتى يبدو كأنه جزء منه ، هو من محسنات البديع ، وقد كثر وقوعه في كلام المتأخرين وهم يتفاوتون في إحكام صنعته بحسب القوة والضعف في صياغة الكلام وعدم ظهور العمل فيه ومن أرقاه ما وقع لابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد من تضمين شواهد العروض في جميع بحور الشعر الخمسة عشر فليُنظر فيه .

أما أصحابنا الفقهاء فمن قول بعضهم فيه مُضمناً شطر بيت من ألفية ابن مالك :

العلماء كلهم من سادا أو لم يسد ، لم يبلغ المرادا
فرزقهم مرخم منادى (كياسعا فيمن دعا سعادا)

والشطرُ المضمن هو من قول الألفية في باب الترخيم :

ترخيماً احذف آخر المنادى كياسعا فيمن دعا سعادا

وقد تأتت له هذا الفقيه الأديب أحسن التأتى وأدخله في كلامه بصورة لا يهتدي إلى أنه مضمن من لم يكن يعرف الألفية وإنما هي التي ضربته مثلاً للترخيم ، وهذا بقطع النظر عن جمال هذا الكلام وما فيه من اقتباس لقاعدة الترخيم في علم النحو حتى حسن تضمين الشطر المذكور وضربه

مَثَلًا لنقصان رزق العلماء وقلة حظهم على حسب ما
يقال .

وتضمنُ أشطار الألفية مما أولع به الطلبة والمشائخ حتى
انهم استعملوه في النسيب والمدح وغيرهما من الأغراض
الشعرية ، ومما نذكره من ذلك قول بعضهم :

إذا أتى الحبيب للباب ودق افتح وقلّ مَنْ بكسره نطق
وإن أتى الرقيبُ (والملاحقه) بعكس ذاك استعملوه فانتبه)

وفي نفع الطيب رَجَزِيَّة لمحمد بن يوسف التاملي نصّفُ
أبياتها أشطار من الألفية ، وهي في مدح صاحب النفع
فمن قوله فيها :

نُشير بالتضمن للنحرير المقرّي الفاضل الشهير
ذاك الامام ذو العلاء والهمم (كعلم الأشخاص لفظاً وهو عم)
فلن ترى في علمه مثيلاً (مستوجباً ثنائي الحميلاً)
ومدحه عندي لازم أتى (في النظم والنثر الصحيح مُثَبَّتاً)

وهذان المثالان إنما أتينا بهما على سبيل الإحماض للمناسبة ،
وإلا فهما لا يرتقيان إلى درجة المثال الأول الذي أحكى
معنى وأسلوباً .

ومن أبدع ما وقع للمتأخرين في هذا الباب قول الشيخ
يوسف النبهاني في آخر لاميته التي عارض بها قصيدة كعب
ابن زهير الشهيرة في مدح النبي (ص) وهو هذا البيت :

إن كان متبولَ قلب حين أنشدكم
(بانتُ سعادُ ، فقلبي اليومَ متبول)

ومعلوم أن هذا الشطر المضمّن هو صدر مطلع القصيدة
المُعارضة ، ونصّه بصدّره وعجزه :

بانتُ سعادُ فقلبي اليومَ متبول
مُتَيِّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبُول

فالنبهاني لما ضمّن صدر هذا البيت ، وهو يخاطب الممدوح
عليه السلام ، جعل منه جواباً لصدّره هو ، فقلّبتُ معنى
الفاء في صدر بيت كعب من العطف إلى جواب الشرط ،
وأوهم أن المضمّن إنما هو قول كعب (بانتُ سعادُ) أي
جزءُ الصدر ، وساعده على ذلك أن هذه القصيدة اشتهرت
باسم بانتُ سعادُ أي بهذه الجملة كما قال أبو اسحاق الغزّلي
فيها :

وأعلتُ كعبه في كل ناد	محتُ بانتُ سعادُ ذنوبَ كعب
مُشَبَّبةً بيّين من سعاد	وما احتاج النبي إلى قصيد
فكان إلى المكارم خيراً هاد	ولكن سنّ إسداء الأيادي

وعلى كل حال فقد بقي جزء الصدر الآخر وهو قوله
فقلبي اليوم متبول كأنه خارج من التضمين لأنه جواب الشرط
في صدر النبهي ، والحال أنه مضمّن كالجُزء الأول ، وذلك
منتهى البراعة .

والغايةُ في هذا الباب قصيدة أبي بكر بن جُزَيّ التي
ضمّنها أعجازَ قصيدة امرئ القيس ونقلّها من معانيها
الهزلية إلى معانٍ جديدةٍ من الوعظ والمديح النبوي وذلك
حين يقول :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي
(ألا عِمّ صباحاً أيها الطلل البالي)

أما واعِظي شيبُ سما فوق لمّتي
(سُمّو حَبَاب الماء حالاً على حال)

أنار به ليلُ الشباب كأنه
(مصاييحُ رهبان تُشَبّ لقفال)

نهاني عن غبّي وقال منها
(ألست ترى السمار والناسَ أحوالي)

يقولون غيّرهُ لتنعّم برهة
(وهل ينعمن من كان في العُصر الخالي)

أَغَالِطُ دَهْرِي وَهُوَ يَعْلَمُ أَنِّي
(كبرت وأن لا يُحسِنَ اللهوَ أمثالي)

وَمُؤْنِسُ نَارِ الشَّيْبِ يَقْبَحُ لَهُوهُ
(بآنسة كأنها خطٌ تمثال)

أَشِيخًا وَتَأْتِي فِعْلَ مَنْ كَانَ عَمْرُهُ
(ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال)

وَتَشْغَفُكَ الدُّنْيَا وَمَا إِنْ شَغِفَتْهَا
(كما شَغِفَ المهنوءةَ الرجلُ الطالِي)

أَلَا إِنَّهَا الدُّنْيَا إِذَا مَا اعْتَبَرْتَهَا
(ديارٌ لسلمى عافيات بذى خال)

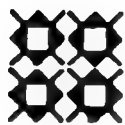
فَأَيُّنَ الَّذِينَ اسْتَأَثَرُوا قَبْلَنَا بِهَا
(لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَال)

ذَهَلْتُ بِهَا غِيًّا فَكَيْفَ الْخِلَاصُ مِنْ
(لَعُوبٍ تَنْسِينِي إِذَا قَمْتُ سَرْبَالِي)

وَقَدْ عَلِمْتُ مِنِّي مَوَاعِدَ تَوْبَتِي
(بَأَنَّ الْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَال)

وَمُذْ وَثَقْتُ نَفْسِي بِحُبِّ مُحَمَّدٍ
(هَصُرَتْ بَغْصَنُ ذِي شَمَارِيخٍ مِيَال)

ومن هنا تخلص للمديح وسار فيه على هذا المنهاج متانةً
أسلوب وحسنَ صياغة ، ولما أنشد المقرئ هذه القصيدة في
نفع الطيب عقب عليها بقوله : « ولاخفاء ببراءة هذا النظم
وإحكام هذا النسج وشدة هذه العارضة » وهذا ما يهمننا أن
يعرفه كل من يزري بأدب الفقهاء ، وما نريد أن يتحقق
منه من كان في شك من أمر هذا الأدب ، حتى يرد له اعتباره
ويقدره حق قدره .



النظم التعليمي

ومن ألوان أدب الفقهاء ما يسمى بالنظم التعليمي ، وهو هذه المُتُون العلمية المنظومة التي تزخر بها المكتبة العربية وتُكوّن سجلاً حافلاً من الكتب الدراسية التي لبث طلاب العلم في العالم العربي قروناً طويلة يستعملونها في دراساتهم المتنوعة ، ويقتبسون منها المعارف والفنون جيلاً بعد جيل . لأو يُرجح أن أول من تعاطى هذا اللون من الأدب أبانُ اللاّحة أديب العباسي المشهور ، فإنه كان في خدمة البرامكة كاتباً لهم وموذباً لأبنائهم فنظم لهم كتاب كليله ودمّنه في رجز سلس ليسهل عليهم حفظه وهو الذي يقول في أوّله :

هذا كتابُ أدبٍ ومِحَنَه وهو الذي يُدعى كليله دِمْنه
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدُ وهوَ كتاب وضعته الهندُ

وقد أجازوه عليه بآلاف الدنانير . ثم نظم لهم رجزاً آخر في أحكام الزكاة والصيام ، ولا شك أن غيره من الأدباء نهج هذا النهج في نظم العلوم ، لا سيما مع العلم بما حصل عليه أبان من جوائز مُغرية على ذلك . والمُهم أن الفكرة خرجت أولاً من عند الأدباء ثم تبنّاها العلماء ، والجانب الأدبي فيها

هو هذه الصياغة المُختصة بالشعر ، ولا ريب في أن التعبير الجميل عن الفكرة ، أيّ فكرة ، هو مما يدخل في مفهوم الأدب بالمعنى العام ، فلهذا عددنا هذا الانتاج من ألوان الأدب.

ولما تداول العلماء هذا الفن من القول ، أبدأوا فيه وأعادوا وأكثروا منه إلى الحد الذي جاوز العد ، ولم يبق علم لم ينظموا فيه ولا أدب ولا فن ولا ضرب من ضروب المعرفة إلا أخضعوه للوزن والقافية ، إن في رجز أو غيره من الأبحر كالبيسط والطويل وغيرهما . فنظموا قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبيان ومتن اللغة كذلك ، ونظموا الفقه والأصول والكلام والتصوف والقراءات ومصطلح الحديث ، ونظموا في الطب والكيمياء والفلك والمنطق والفلسفة والجبر ونظموا في بعض الصناعات كالخط وتجليد الكتب وبعض الألعاب كالرماية والشطرنج ، ونظموا ما يرجع إلى العادات والأخلاق وأدب المجتمع ، وما يتعلق بأمر الآخرة كالبعث والحساب والجزاء ، ونظموا في علم الجداول والنسب وتعبير الرؤيا وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره في هذا الفصل .

وتختلف هذه الأنظام في الطول والقصر بحسب الموضوعات التي تناولها ، فمنها ذات العشرات ، ومنها ذات المئات

ومنها ذاتُ الألف من الأبيات . واشتهرت الألفيات منها على الخصوص في بعض العلوم كألفية ابن مُعْطِي وألفية ابن مالك ، وألفية السيوطي في النحو والصرف ، وألفية العراقي في السيرة النبوية ، وألفيته في المصطلح الحديثي وألفية السيوطي فيه أيضاً ، وألفية ابن الوردي في تعبير الرؤيا ، وألفية ابن الشحنة في الفرائض ، وألفية البرماوي في الأصول ، وألفية القباقي في علوم البيان ، وألفية السيوطي فيه كذلك ، وألفية داود الأنطاكي في الطب ، وألفية أبي الوفاء المصري في المنطق ، وألفيته في العروض وغير هذه من الألفيات المختلفة الموضوع .

وأما المنظومات التي جاوزت أبياتها الألف فمنها منظومة ابن زكري التلمساني في علم الكلام المسماة بتحصيل المقاصد ، ألف وخمسمائة بيت ونيف ، تحفة الحكام في علم الفقه لابن عاصم ، مثلها ، منظومة الكواكبي في الأصول ألف وثمانمائة ، الشقرونية في الطب لعبد القادر بن شقرون المكناسي مثلها ، الكافية في النحو لابن مالك ، نحو ثلاثة آلاف ، الأقنوم في مبادئ العلوم لعبد الرحمن الفاسي وهو شبه موسوعة تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً في أكثر من خمسة آلاف بيت . ومن الغايات في هذا الباب منظومة بدر الدين الدهشقي المسماة بفصل الخطاب في وصل الأحاب ، تكلم فيها على العلاقة الزوجية وما يتعلق بها من آداب وأحكام في نحو أربعمائة

واثنى عشر ألف بيت ، منها عشرة آلاف بيت من نظمه ،
والباقي مما استشهد به من نظم غيره (١) .

وعلى كل حال فالمعتبر من هذه الأنظام هو الكيفية لا
الكمية ، وبإيرادنا بعض النماذج منها ومن غيرها نعرف أن
عملية النظم هذه لم تكن سهلة ، وإنما تقتضي مُعاناة لكي
يكون المنظوم سائغاً سهلاً يحقق المراد منه الذي هو تقريب
حفظه وعُلوقه بالذهن تيسيراً على الطلبة ، وتمكيناً لهم من
تذكر قواعد العلم والاستشهاد بالبيت الذي يتضمن القاعدة
المطابقة في سهولة تامة ، لأن النظم يُتَيِّدُها وهو لا يعزُبُ
عن الذهن إلا قليلاً ، كما قال ميمون الفخار في نظم الآجرومية :

والقصد من ذا الرجز المقرَّب	تعليمُ أولاد صغار المكتب
عسى الذي منهم به تعلما	يقول يا رب ارحم المعلما
لما رأيتهم شقوا وتعَبُوا	في حفظ منشور ولم يقتربوا
أيقنتُ أن النظم فيما أدري	أشهى وأولى من نفيس النثر

ويعجبنى قول الشرف العسريطي في نظمها أيضاً :

وبعدُ فاعلم أنه لما اقتصر	جلّ الوري على الكلام المختصر
وكان مطلوباً أشدّ الطلب	من الوري حفظُ اللسان العربي
كي يفهموا معاني القرآن	والسنة الدقيقة المعاني

(١) توجد نسخة من هذه المنظومة عند الأستاذ حماد بو عياد بفاس .

والنحوُ أولى أولاً أن يُعلما
وكان خير كتبه الصغيره
في عُرْبِها وعُجْمِها والروم
وانتفعت أَجِلَّةٌ بعلمِها
نظمتُها نظماً بديعاً مُقتدِ

إذ الكلام دونه لن يُفهما
كراسة لطيفة شهيره
ألفها الحبرُ ابن آجرُوم
مع ما تراه من صغير حَجْمِها
بالأصل في تقريبها للمبتدي

فانظر هذه السلاسة وهذا الوضوح ، وقارن بين ما قاله
أبان اللاحقي ، وهو أديب كبير ، في طالعة نظمه لكليلة
ودمنة ، وطالعة العمريطي هذه ، يَبْدُ لك فضلُ هذا العالمِ
مع تأخره على ذلك الأديب مع تقدمه .

ومن أحلى المطالع قولُ ناظم كتاب المُغني لابن هشام ،
وهو يبين أيضاً أن سبب النظم هو التسهيل :

هذا بحمد الله نظم سهل
ضمّنته قواعدَ الإعراب
معتمداً على كتاب المُغني
ترتيبه قصدتُ واختياره
ولم أزد على بناء القاعده
وأسأل الله الذي ألهمني
وأن يديم به الانتفاعا

مورده للطالين نهّل
وملّح النّحاة والأعراب
لابن هشام شيخِ هذا الفنِ
اخترتُ واختصرت في العبارة
إلا الذي به تم الفائدة
لوضع هذا النظم أن يرشدني
حتى يكون صيباً نفاعا

ثم الصلاة ما لها انصرام على رسول الله والسلام
ما أعربت آياته وفُسِّرت وأظهرت أسماؤه وأُضمرت

وإذا كان أبان وغيره ينظم للجائزة فإن أصحابنا الفقهاء
ينظمون رغبةً في الأجر والثواب من الكريم الوهاب لأنهم
يعتبرون عملهم هذا من العبادة كما قال صاحب منظومة
الظاء والضاد :

أفضلُ ما فاه به ، الإنسانُ	وخير ما جرى به اللسانُ
حمدُ الاله والصلاةُ بعده	على النبيّ فهو أسنى عنده
وكلّ ما يُنظم للافاده	فذاك معدود من العباده
وقد نظمتُ جملةً من الكلمُ	في الظاء والضاد جميعاً تلتئمُ
فاسمع بُنيّ من أبيك سرّدها	واعرف هُديتَ حصرها وعدّها
وابداً إذا قرأتها بالظاء	وثنّ بالضاد على استواء

وهذه المطالع زيادة على بيانها للمراد من النظم فإنها تُعطينا
مثالاً من العمل الأدبي أو التعبير الفني الذي يؤدي به الناظم
معاني الكتاب وقواعد العلم الذي ينظمه ، وهي كما رأينا من
حيث الصناعة غاية في الانسجام والبلاغة ، بحيث تجعل الطالب
يتلقى حقائق العلوم وهو متأثر بسحر البيان ومأخوذ بسر
الفصاحة ، واسمع هذا المطلع الجميل ، وتمتّع بحلاوة لفظه
ورقة معناه على طوله وهو من نظم الشقرونية في الطب :

الحمد لله الحكيم المرشد
المنزل الغيث من السماء
سبحانه قد سخر الرياحا
وأرسل اللوائح العظيمة
ما طلعت من غرر السحاب
تحمل غيثاً سابغ الأيادي
سبقت لسقي بلد موات
فاخضرت الأرض بحسن ملتبس
رائقة تجلّي بحلي الزهر
كم أصبحت عرائس النصوص
وافتر ثغر نورها المعطار
أبدت سنابل تحيط بالثمر
نوارها مختلف الأشكال
من ذي أكاليل وذي أبواق
غنى عليه النحل بالمزامير
وكل نبت من حشيش أو شجر
ما خلق الرحمن شيئاً عبثاً
يرزقنا في كل فصل نعمة
نحمده حمد مقرر بالنعيم
معتقد أن ليس يذّهب الضرر

المُلهم الخير لكل مهتد
الرازق الأقوات للنماء
مفيدة عباده صلاحاً
بين يدي رحمة العميمه
مبشرات جمّة العجائب
لكل حاضر وكل بـساد
أحسن بغيث شامل موات
رافلة في حلل من سندس
تسدي السرور وقت مدّ البصر
ترهو بدرّ برديها المصون
مكلاً بلولؤ الأمطار
في نسق تحكي عقوداً من درر
يسمو على قلائد الآلي
وذي مدّاهن وذي أحداق
عن أمر من يقهر كل أمير
خلقه لحكمة ربّ البشر
من كل برّي وما قد حرّثا
سبحانه عمّ البلاد كرمًا
معرّف ببعثه بعد العدم
إلا الذي أجرى القضاء والقدر

ثم الصلاة والسلام السرمدي
وآله والصحب والاتباع
وبعد فالقصد بهذي الجُمَل
طبع الحبوب ومُرْكَب الغِذا
وكل قوت في اصطلاح المغرب
كذلك الحُضْرُ والمَقَاتِي
وبَقْلها البرِّي والبستاني
ومن فواكه على العموم
وما يخص اللحم من تَوَابِل
وربما نذكر من مِيَاه
نُتبعه أدوية نَفِيسه
كما نجيد القول في اللباس
ونبسط التعبير في المقال
واسأل الوهّاب نيل الأرب

على الرسول المتقي محمد
ما انهلّ وابل على البقاع
ذكر مزاج قوتنا المستعمل
وما له نفع وما له أذى
لدى الحواضر وعند العرب
وما يرى منهن في الأوقات
وغالب المأكول من لحمان
من طيب يرضي ومن مَذْمُوم
وما يُجيدُ طَعْمَه لَلآكِيل
أمرأ كثيرُ الناس عنه ساهي
تذهب أمراضاً بدت خسيسه
وفي المساكن ومأوى الناس
كيما يرى مطابق السؤال
فهو المرجى لبلاغ الطلب

وكان هذا النظم جواباً من العلامة ابن شقرون لسؤال من
تلميذه الشيخ صالح بن المعطي ، وهو ما أشار اليه بمطابقة
السؤال ، والمنظومة كلها من هذا النمط ، ولولا أني أطلتُ
يجلب مطلعها كله لأعطيت منها أمثلة في موضوعها لأنها
مزدوجة الفائدة ، فهي تعلم الأدب وتدبير الصحة .

وللعلماء في مطالع أنظامهم نوادر من ألفتها ما يحكى أن
ابن مالك لما شرع في نظم ألفيته قال في مدحها :

وأستعينُ الله في ألفيه	مقاصدُ النحو بها مَحْويه
تُقَرَّبُ الأقصى بلفظ مُوجَز	وتبسُّطُ البذل بوعد مُنَجَز
وتقتضي رضا بغير سُخْط	فائقة ألفية ابنِ مُعْط
فائقة منها بألف بيت

ولما نظم هذا الشطر توقّف ولم يُفْتَح عليه في تمامه ، ونام
ليلته قالوا فرأى ابنَ معطي في نومه وهو لا يعرفه ، فأنشده
أبياته هذه ، فأجاز شطره الأخير بقوله :

والحيّ قد يغلبُ ألفَ مَيْت

فاستيقظ ابن مالك من نومه واستحى مما قال في حق ابن
معطي وحذف ذلك الشطر وقال عقب الأبيات الثلاثة التي
قبله :

وهو بِسَبْقٍ حائِزٌ تفضيلاً مستوجبٌ ثنائِيّ الحميلاً
واللهُ يقضي بهباتٍ وافرة لي وله في درجات الآخرة

وتكررت الحكاية مع السيوطي ، فإنه لما نظم ألفيته في
النحو قال في مطلعها :

النحوُ خيرُ ما به المرءُ عُنِيَ إذ ليس علم عنه حقاً يَغْتَنِي
وهذه ألفية فيه حوتُ أصوله ونفعَ طلابِ نوتُ
فائقة ألفية ابن مالك لكونها واضحة المسالك
وجمعها من الأصول ما خلت عنه وضبطُ مُرسَلاتٍ أهملت

لكن لم يُحكَ لنا عن السيوطي أنه رأى ابن مالك في نومه
وعاتبه كما عاتب ابنُ معطي ابن مالك .

وقد دخلت هذه المنظومات في حياة طلبة العلم وتمكّنت
من نفوسهم ، فبقطع النظر عن استعمالهم لها في دراساتهم
المتنوعة واحتجاجهم بأبياتها في مناقشاتهم العلمية ، هناك
بعض أبيات ومقاطع منها تجري على ألسنتهم ، وربما على
ألسنة العموم مجرى الأمثال لدلالاتها الشاملة وحسن صياغتها ،
كالشطر الثاني من قول ابن عاشر في نظمه المسمى بالمرشيد
المُعِين على الضروري من علوم الدين :

فصلٌ و طاعةُ الجوارح الجميع
قولاً و فعلاً هو الاسلامُ الرفيعُ

فهذا الشطر نجد حتى الدامة يرددونه في المناسبات المقتضية
له كالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وممارسة الشعائر الدينية فيقولون
« قولاً و فعلاً هو الاسلام الرفيع » .

ومن اللطائف ما يجري على الألسنة من قوله في باب الحج :
(واسرِعَنَّ في بَطْنِ وادِي النار) وذلك في أماكن المرور
الخطيرة وملتقى الطرق التي تكثر فيها السيارات ونحوها .

ومن هذا الباب ما يجري على الألسنة من قول ابن مالك
في الألفية : (وحَدِّفْ ما يُعَلِّمُ جائِز ...) وذلك عند عدم
التصريح بما يُكْرَهُ وما لا لزوم لذكره .

ومنه قوله (كما لَنَا الاتِّبَاعُ أَحْمَدًا) في باب الابتداء
تمثيلاً لوجوب تقديم الخبر عند الحَضَر . على حسب ما أشار
له الشطر الأول من البيت وهو قوله (وخَبَرَ المحصور قَدَمُ
أَبْدَا) فيجري تمثيله ذلك على لسان أهل العلم وجمهور المؤمنين
عند إظهار التعلّق بالتمسك بالسنة واتباع الرسول (ص) .

ولا شك أن الكلام حين يرقى إلى هذه الدرجة من دورانه
على الألسنة وجريانه مجرى الأمثال العامة ، يكون آخذاً بحظه
من حُسْن الأداء وقوة التعبير ، وذلك ما يؤكد القول بأن
هذه الأنظام وإن اشتملت على أغراض علمية صرفة أو تعليمية
بعبارة أخرى ، فإنها تكتسي حلة من البيان والوضوح تجعلها
باعتبار آخر من الآثار الأدبية المرموقة .

وإلى هنا نكون قد تكلمنا على مطلق نظم العلوم ، أو جانب
من النظم التعليمي هو المتعارف عند إطلاق هذا الاسم . ولكن

هناك نوعاً غريباً منه يجب أن نفرده بكلمة ، لأنه أدل على
مقدرة أصحابنا الفقهاء ، وبراعتهم الأدبية ، وهو النظم
الذي يستعملون فيه رموزاً واصطلاحات خاصة فيُلمّون
في المنظومة الصغيرة والأبيات القليلة بقواعد علم كامل من
العلوم ويُحصّلون مسائله ويضبطون أصوله بحيث لو لم يتأتوا
لها ذلك التأتى اللطيف ويسلّكوا لها ذلك المسلك العجيب لما
وسّعتهُم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء
تلك الأغراض وتحصيل تلك المقاصد .

ومن أمثله قصيدة حرّز الأمانى في القراءات السبع ،
المعروفة بالشاطبية ، نظم أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ،
فإنها على اختصارها في الجملة (إذ تبلغ ١٣٠٠ بيت) جمعت
زُبدةَ القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير . ولذلك
نجد الكثير من أهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء
والبلغاء ، وحذاق أهل الرواية والقراء . قال ابن خلكان
في ترجمته للشاطبي : « إنه أبدع في حرز الأمانى ، وهي
عمدةُ قراء هذا الزمان في تعلمهم ، فقلّ من يشتغل بالقراءات
إلا ويُقدّم حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز
وإشارات لطيفة ، وما أظنه سبق إلى أسلوبها » .

واصطلاحه هو الذي أشار إليه بقوله :

جعلت (أبا جاد) على كل قارىء
دليلاً على المنظوم أولَ أولاً

ومن بعد ذكر الحرف أَسْمِي رجاله
مَتَى تنقضي آتِيكَ بالواوِ فيَصْلا

سوى أحرفٍ لا رِيَّةٌ في اتصاها
وبالقَيْدِ أَسْتَغْنِي عن القيد إنْ جَلَا

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرح
الاشبيلي التي جمع فيها ألقاب الحديث بأسلوب عجيب ومنهج
غريب ، إذ سلك بها مسلك أهل الغزل في ظاهر اللفظ وحمل
كلَّ لقب من ألقاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض ، حتى
لو أُلْقِيَتْ على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات
أهل الحديث لما فَهِمَ منها إلا معاني غزلية رقيقة تنشرح لها
النفوس وتغبط بها القلوب ، ومطلعها :

غرامي (صحيحٌ) والرَّجَا فيكَ (مُعْضَل)
وحزُنِي ودمعِي مُطْلَقٌ (ومُسَلْسَلٌ)

ومن هذا الباب أيضاً قصيدةُ أبي الجيوش محمد ضياء الدين
الخزرجي الأندلسي أو السَّبْتِي المعروفة بالخزرجية في علم
العروض التي سارت بذكرها الركبان ، والتي جمعت مُهِمَّاتِ
هذا العلم في تسعين بيتاً ونَيْفٍ ، بفضل ذلك الأسلوب

البدیع الذي ألعنا إليه وهو الرمز والاشارة ، فبعد أن يقول
في مطلعها :

لِلشعر ميزانٌ يُسمَى عَرُوضَه
بها النقص والرجحان يَدْرِيهما الفَتَى

فيأتي به نظماً واضحاً لا غُبار عليه حتى في الحرّم الذي بأوله ،
يقول رامزاً لأجزاء التفعيل العشرة مُشيراً إليها بحروف
أجد :

أصابتُ بِسَهْمَيْنِها جوارحنا فدا
ركوني بِهَيْمَةٍ كوقعِئِهما سوا
فما زائراتي فيهما حَجَبَتْهُما
ولا يَدُ طُولاهُنَّ يعتادُها الوفا

ومنه كذلك على طريقة التورية كما في نظم غرامي صحيح ،
منظومة أبي القاسم المَهَلَّبِيّ البلنسي لمثلث قُطرب في اللغة
وهو الذي يقول في طالعه :

يا مُولِعاً بالغضب	والهجر والتجنب
في جده واللعب	حبّك قد برّح بي
إن دموعي غَمَرُ	وليس عندي غِمَرُ
يا أيها ذا الغُمَرُ	أقصرُ عن التعَبُ

إلى آخر وقد شرحه أحد المغاربة نظماً على هذا المنوال
وهو المثبتُ في مجموع المتون الكبير المطبوع طبع حجر
بفاس .

ويظهر أن هذا النوع من النظم قد انفرد به الأندلسيون
أو كانوا هم الذين نهجوا سبيله لغيرهم فإننا لا نعلم لمشرقي
نظماً على منواله إلا ما كان للعلامة الصبَّان الذي عارض
قصيدة غرامي صحيح بأخرى على مثالها يقول في أولها :

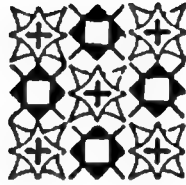
صِلُّوا (صحيح) غرام صبرُهُ ضعُفاً
وبدِّلُوا (قَطْع) من في حبِّكم شُغِفاً

كما عارض قصيدة الخزرجية بقصيدة لامية استعمل فيها
نفس رموز أبي الجيش وهي التي يقول فيها :

وبعد فعلم الشعر فنَّ مؤكِّد
فبادر إليه واستمع فيه ما حلا

وبعد ، فهذه كلمة قصيرة في هذا اللون من ألوان أدب
الفقهاء ، وهو النظم التعليمي ، لم نُردِّ بها إلا التنبيه على وجه
آخر من وجوه الاحسان : الذي لهم في ميدان الأدب ،
والمشاركة التي لا تزري بهم أبداً في الانتاج الأدبي سواء كان
خاصاً بهم أو عاماً ، وإلا فإن بحث النظم التعليمي لا تنفي به

كلمة قصيرة أو طويلة ، وما أحراه أن يفرد بالبحث ويكون
أطروحة لبعض الدارسين تلم بأطرافه وتشير على سبيل التفصيل
لأبعاده التي ما نطن أن كتاباً واحداً أو رسالة جامعية مفردة
تحيط بها .



كلمة ختامية

الآن وقد أثبتنا بما لا مزيد عليه من البيان والتبيين ، والأمثلة والشواهد ، أن أدب الفقهاء أدب حيّ مُعَبَّر ، لا يقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء ، وإن التهمة التي تُوجّه إليه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلاً مضروباً لكل أدب بارد سخيّف ، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمنتجين له ، نريد أن نقول في كلمة ختامية لهذا البحث ، إننا لا ننفي أن بعض الفقهاء ليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب ، وأنهم حين يتعاطون النظم يتكلفون ما ليس من سجيّتهم ، فيأتي نظمهم فجاً ركيكاً .. ولكن يجب أن لا ننسى أن في أدب غيرهم من الفُسولة والرداءة ما يُغطّي على أدب الفقهاء الذين يُقرّون بأنهم متطفلون على موائد الأدباء ، بخلاف مَنْ يقول أنا به زعيم . وكلّنا نعلم أن شواهد علماء البلاغة التي يوردونها مثلاً للتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب اللفظ والمعنى ، هي من كلام كبار الشعراء المعترف لهم بالسبق في مضمار صناعة النظم ، وليست من كلام الفقهاء ، وكذلك شواهد عِلْمِيّ العروض والقافية على ما يعترى النظم

كلمة ختامية

الآن وقد أثبتنا بما لا مزيد عليه من البيان والتبيين ، والأمثلة والشواهد ، أن أدب الفقهاء أدب حيّ مُعَبَّر ، لا يقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء ، وإن التهمة التي تُوجَّه إليه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلاً مضروباً لكل أدب بارد سخيف ، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمنتجين له ، نريد أن نقول في كلمة ختامية لهذا البحث ، إننا لا ننفي أن بعض الفقهاء ليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب ، وأنهم حين يتعاطون النظم يتكلفون ما ليس من سجيّتهم ، فيأتي نظمهم فجاً ركيكاً .. ولكن يجب أن لا ننسى أن في أدب غيرهم من الفُسُولة والرداءة ما يُغطّي على أدب الفقهاء الذين يُقرّون بأنهم متطفلون على موائد الأدباء ، بخلاف مَنْ يقول أنا به زعيم . وكلّنا نعلم أن شواهد علماء البلاغة التي يوردونها مثلاً للتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب اللفظ والمعنى ، هي من كلام كبار الشعراء المعترف لهم بالسبق في مضمار صناعة النظم ، وليست من كلام الفقهاء ، وكذلك شواهد عِلْمِيّ العروض والقافية على ما يعترى النظم

من اختلال وعدم انسجام بما يدخله من زحافات قبيحة وعلل مستكرهة ، هي من كلام أعلام الشعراء وفصحاء العرب جاهليين واسلاميين ، فالفقهاء ونعني بهم العلماء على العموم ، إذا لم ينظموا على الطبع والسجية ، يقعون في مثل ما وقع فيه أئمة الصناعة وأمراء الكلام ، وهم بحكم علمهم بما يُترخّص فيه من مخالفة للقواعد ومجاوزة للقيود يكثر منهم التساهل ولا سيما عندما يعتمدون التقطيع ويتحاكمون إلى أجزاء التفعلة فيجيء نظمهم قلقاً مضطرباً ، ولكنهم لا يرون بذلك بأساً ، لأنه جار على المسطرة كما يقولون . وقد لاحظتُ غير ما مرة على بعض النظميين ما في كلامهم من الكسر والسقوط ، فكانوا يلجأون إلى التقطيع ويحتجّون بأنهم على سوية العروض .

وهذا فيما يكون من الشكل غير مُخلٍ بالمُحتوى ، أما ما اشتمل على الخللين واعتورته العلة من الناحيتين ، فهو مما لا كلام عليه ، وصاحبه حريّ بأن لا يعدّ في الفقهاء ولا في الأدباء ، ومع ذلك ففي كلام فحول الشعراء ما يذهبُ بعضه بكل ما في كلام هؤلاء الفقهاء من مأخذ ومعائب . ولو ذهبنا نضرب الأمثال ونتخير النماذج مما انتقِد على متقدمي الشعراء فأحرى متأخريهم لضاق بنا المجال عن استيعاب ذلك ، ويكفي أن نعطي مثلاً واحداً ، وهو هذان البيتان من قول بشار بن بُرد زعيم الشعراء المولّدين :

إنما عَظُمُ سَليمي قَصَبُ قَصَبُ السَّكرِ لا عَظُمُ الجَملِ
وَإِذا أَدنيتَ مَناها بَصَلا غَلَبَ المِسكُ عَلى رَيحِ البَصَلِ

فأي شعر لفقيه انحطَّ إلى هذا الدَّرَك من السخف والغثاثة
حتى تُضربَ الأمثال بشعر الفقهاء ويُنسى هذا النموذج «
من شعر الأدباء؟ فإذا قيل إن هذا وشبهه قليل في كلام الشعراء
المطبوعين ، قلنا إنه كذلك قليل في كلام الفقهاء أو طبقة قليلة
منهم على الأصح ، مع العلم بأن الشعر عندهم إنما هو هواية ،
وليس حرفة ، وهذا القليل من المحرِّفين المختصين لا يقال
له قليل ، فكان الأولى أن «ينوّه به كما ينوّه» بقليلِ القِلَّة من
الفقهاء الذي جاء على مثاله أو قريباً منه إن تسامحنا في المقارنة .

وبسطُ القضية بمزيد من الوضوح أن أدب الفقهاء الحقيقي
هو ما عَرَضناه وتعرَّضنا له بالنقد والتحليل في الأبواب
المتقدمة والتراجم السابقة ، وما لم يكن على غِراره فهو من
عمل ضِعاف الفقهاء ، وشيء قليل بالنسبة إلى الكثير الطيب
الذي أوردنا منه ما أوردنا ، فإطلاق الكلام إلى حدِّ إرسال
المثل بضعف أدب الفقهاء لا يُوافق الحقيقة ، وفيه تحامل
كبير على هذه الطبقة من رجال الفكر وحملة القلم ، ويُنتج
عنه صرف النظر عن كثير من الروائع التي تفيد أدبنا غنيً
وثروة كما بينّاه فيما سلف ، ولو كان هناك حق وإنصاف
لما حُمِلَ الاحسان الكثير في إنتاج هذه الطبقة الشِعْري على

الاساءة القليلة التي وقعت منهم فيه ، مثلما عليه الحال مع
الأدباء والشعراء الكبار على الأقل ، وهم الذين كان الواجب
أن لا تُغتفر زلتهم ، لأنهم بمحل القدوة في هذا الشأن .
وجانب آخر من القضية هو أن بعض الفقهاء كثيراً ما
يتساهلون في أنظمتهم العلمية لقصدتهم إلى عموم الفائدة وتقريب
المعنى إلى الطلاب ، وهذا ليس من الحق أن تؤخذ به جميع
أفراد هذه الطبقة ويعتمتها حكومتها ، خصوصاً وإن الكثير
منهم كان على خلاف ذلك ، ينظم الفوائد العلمية ويحصل
قواعد الفنون في شعر بليغ مُحكم على نحو ما مثلناه في باب
النظم التعليمي حتى قيل في منظومات بعضهم في الكيمياء
القديمة أنها إن لم تُفدك العلم أفادتك الأدب .

وقد نبه على هذه الظاهرة العلامة الأديب أبو العباس أحمد
القرني صاحبُ نفع الطيب ، في كتابه فتح المُتعال في مدح
النعال ، لما أورد أبياتاً من ألفية الحافظ زين الدين العراقي في
السيرة النبوية ، تتعلق بوصف النعل الشريفة ، على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام ، ولاحظ ما فيها من درك عليه
صناعة ، وبعد أن التمس المخرج لذلك ، قال معتذراً
عنه : « على أن نظمه رحمه الله نظم فقيه . والمقصود الافادة
وهي حاصلة على كل حال ، وقد سلك هذه الطريقة جماعة
من العلماء الصالحاء أعني عدم تحسين النظم ، إذ قصدتهم
الجميل إيصال المعاني إلى السامع ولم يشتغلوا بحوك الكلام

على طريقة الأدباء كابن الوردي وأنظاره ، فعجزى الله الجميع
عن الدين خيراً . ولقد كان شيخنا مفتي مدينة فاس العلامة
سيدي الشيخ محمد القَصَّار القَيْسِي الفاسي الغرناطي الأصل ،
كثيرَ الاصلاح لأبيات العراقي في ألفية علوم الحديث ، وكنت
لا أَحِبُّ ذلك منه ، مع أن مقصده رحمه الله حسن ، والتسليم
أسلم والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا كلام المقرئ . ونحن نسجل الفكرة الأساسية فيه ،
وهي أن ما يقع في نظم بعض العلماء من مآخذ ، منشأه هو
التساهل الذي يحملهم عليه قصدُ النفع والتفهم بأقرب الطرق
وأسهل العبارات ، وليس ذلك من عجز ولا قصور والدليل
على ذلك أن قائل هذا الكلام والمُلاحِظ على النظم المعنوي
بالأمر ، أي ألفية العراقي ، هو نفسه من أكبر الفقهاء وألمع
الأدباء ، وهو الذي ألَّف لنا أعظم موسوعة عن الأندلس
وأدبها وعلمائها وشعرائها أعني كتاب ، نفح الطيب ، وشعره
ونثره من الطبقة الممتازة ، وله نظم تعليمي مشهور في غاية
الجودة ، ومنه أرجوزته المعروفة في علم الكلام المسماة
بإضاءة الدجُنة في عقيدة أهل السنة . ولا نطيل في التعريف
به فالمقرئ قد طبقت شهرته المغرب والمشرق عالماً وأديباً
ومؤرخاً للأدب العربي مُعتمداً عند جميع الباحثين . ومع
هذه المكانة الأدبية التي له فهو يتسامح مع الحافظ العراقي
ويرى عدم التعلق بما في نظمه من لين ، لأن قصد النفع

سَوَّغَ له ذلك ، وان كان هو لا يرتكبه ، وهذا ما جعلنا
نتحفّظ بإزاء قوله في العراقي « على أن نظمه رحمه الله نظم
فقيه » إذ هو يتناقض مع الفكرة الأساسية التي سجلناها عليه ،
وأول ما ينتقض بنظمه هو الذي لا تتنزّل عليه تلك الكلمة
ولا يقبل هو أن يقال فيه مع أنه من جملة الفقهاء .

ودليل آخر يُؤخذ من كلام المقرئ ، وهو عناية شيخه
الامام القصار بإصلاح الأبيات الضعيفة في ألفية الاصطلاح
للعراقي . فهذا فقيه كبير وعالم شهير لا تَخْفَى عليه علل
النظم التي دخلت بعض أبيات الألفية الشهيرة ويُحاول
اصلاحها ، وما ذلك إلا لتمكنه من صناعة الشعر واختلاف
نظره عن نظر العراقي في مسألة التساهل في قواعد النظم ،
وان كان نظماً تعليمياً ، فليس الفقهاء باطلاق ممن يُقَرِّرون
هذا النظر ويأخذون به ، فالحكم عليهم بعين الجمع هو من
الخطأ الذي قصدنا إلى تلافيه في هذا البحث .

وإذا كان المقرئ معروفاً لدى عامة المشتغلين بالبحوث
العلمية والأدبية فإن القصار هو شيخه وشيخ العلماء المغاربة
في عصره ، بل ان مُترجميه يُحلّونه بشيخ الأعصار والأمصار
وقد تجاوزت شهرته في زمنه حدود بلاده ، فيُحكى أن
الشيخ عبد الواحد بن عاشر لما حجَّ ومرَّ في طريقه بمصر سأله
الشيخ عبدالله الدنوشري من علماء مصر ، عن شيوخه فسَمَى

له منهم الامام القصّار فقال الدنوشري في مدحه :

قد حاك شقّات العلومِ أئمةً
وكسّوا بها بالفضل من هو عار
رقت حواشيها ، ورقّ طرازها
لكنّها تحتاج للقصّار

وهذا شعر جيد يشتمل على تورية مليحة ، وهو مما يقوله
فقيه في فقيه ، ويُحسّن موقعَ هذه التورية ، العِلْمُ بأن
أسانيد المغاربة في العلوم كلها تدور على القصّار ، فهو من
المجدّدين لشباب العلم والمُطرّزين لحُلّته الناصعة البياض .

وعلى مقامه العلمي هذا كان له باع في الأدب وشعر حسن
-جميل ، ومنه الأبيات التي يقولها في الحضر على زيارة الوالدين
بعد موتهما ، وهي الأبيات التي ادعانا كثير من الشعراء
ونصّها :

زُرْ وَالِدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا
فكأنّني بك قد نُقِلْتُ إليهما
لو كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْقَا
زاراك جنواً لا على قدميّهما

أَنْسَيْتَ عَهْدَهُمَا عَشِيَّةَ أُسْكِنَا
 دَارَ الْبَيْلَى وَسَكَنْتَ فِي دَارِيهِمَا
 مَا كَانَ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
 مَنَحَاكَ مُحْضَ الْوَدِّ مِنْ نَفْسِيهِمَا
 كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عِلَّةً
 جَزِعَا لِمَا تَشْكُو وَشَقَّ عَلَيْهِمَا
 كَانَا إِذَا سَمِعَا أَنِينَكَ أَسْبَلَا
 دَمْعِيهِمَا أَسْفَا عَلَى خَدَيْهِمَا
 وَتَمَنَّيَا لَوْ صَادَفَا لَكَ رَاحَةً
 بِجَمِيعِ مَا يَحْوِيهِ مَلِكٌ يَدِيهِمَا
 فَلَتَلَحَقْنَهُمَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ
 حَتْمًا ، كَمَا لَحِقَا هُمَا أَبْوِيهِمَا
 وَلَتَنْدَمَنَّ عَلَى فَعَالِكَ مِثْلَمَا
 نَدِمَا هُمَا أَيْضًا عَلَى فَعْلِيهِمَا
 بُشْرَاكَ إِنْ قَدَّمْتَ فَعَلًا صَالِحًا
 وَقَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ مِنْ حَقِّيهِمَا
 وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا
 تَسْطِيعُهُ وَبَعَثْتَ ذَاكَ إِلَيْهِمَا
 فَاحْفَظْ بُنْيَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا
 فَعَسَى تَنَالُ الْفَوْزَ مِنْ بَرِّيهِمَا

ولا أحتاج أن أنبه على ما في هذه الآيات من عاطفة شريفة
وشعور نبيل زيادة على متانة حوكها وحسن صياغتها . ومن
قوله محذراً من بعض المهام ذات المسؤولية الثقيلة وان كانت
في ظاهرها مما يرغب فيه :

تِسْعُ أَبْيَ مِنْهَا أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالْهَمَمِ السَّيْنِ
إِلَّا بِحَالٍ ضَرُورَةٍ تَدْعُو لَهَا مَعَ حُسْنِ نِيَّةٍ
وَهِيَ الشَّهَادَةُ وَالْوَسَايَةُ وَالْحُكُومَةُ فِي الْقَضِيَّةِ
وَكَذَا الْإِمَامَةُ وَالْوَدِيعَةُ وَالتَّعَرُّضُ لِلْوَصِيَّةِ
ثُمَّ الْجَابَةُ لِلطَّعَامِ وَلِلْوَلَايَةِ وَالْهُدْيَةِ
فَسَدَ الزَّمَانِ وَأَهْلُهُ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْبَرِيَّةِ

وهو شعر تظهر عليه مسحة العلم مما يتضمنه من الورع
وعلو الهمة والتحري في الحكم ووزن الكلام ، فإن الاستثناء
في البيت الثاني والشرط الأخير إنما هو من تثبت العلماء .

ومن نظمه التعليمي هذا البيت السائر :

الاسْتِيَا وَالْوَجْهُ وَالْعَيْنُ وَيَدُ
صِفَاتٌ أَوْ فَوْضٌ أَوْ أَوَّلٌ مَا وَرَدُ

فجمع في بيت مفرد أمثلة المتشابهة ومذاهب المسلمين
بإزائه من السلف والخلف وقول الأشعري إنه صفة .

وهذا أمر يدلّ على مقدرة تامة وملكة راسخة ، ومن كان بهذه المثابة ويصحّح الخطأ في نظم العراقي لا يُقال في شعره أنه نظم فقيه ..

فهؤلاء ثلاثة فقهاء ، اثنان منهم كما رأينا فوقَ النقد ، وواحد محمول على التساهل لمقصد شريف ، فكيف يُحكّم بالثلث على الثلثين حتى مع التسليم بمَحْجُوجِيَّة هذا الثلث ، وما رأيناه في باب النظم التعليمي يدفعُ ذلك .

هذا ومن اللطائف التي يحسُن ايرادُها هنا أن الصلاح الصَّفَدي أنشد في شرحه للامية العجم ، وهو يمثل للشعر الذي أتى على أسلوب الفقهاء هذه الأبيات لأبي نواس :

فاخَرَتْ كُلَّ شَرَابٍ فَسَمَتَ رتبةً ليس يُضاهيها شراب
لا نُمَارِيكَ على تحريمها إن نقلَ ما حُرِّمَت طال الخطاب
حُرِّمَت ، ما حُرِّمَت ، بل حُرِّمَت

جاء في التنزيل نبيّ واجتناب

قال هل أنتم؟ فقلنا نحن لا! وسكتنا كلنا واستدّ باب

ثم عقب عليها بقوله : « كأن يقال أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ، والشافعي شاعر غلب عليه الفقه .. والشافعي والخليل بن أحمد وأبو بكر بن دُرَيْد معدودون من العلماء الشعراء » .

ولا أدري مدى صحة هذه المقالة بالنسبة إلى فقه أبي نواس
 بالخصوص ، ولكنني أفهمُ منها الاعجاب ببراعة أبي نواس
 في استخدامه لحدّال الفقهاء في أبياته الرائعة ، وأعجبُ
 بحُسن رأي الصفدي ، وهو الأديب الضليع في عدم مجافاة
 الفقه للأدب ، وأن الفقهاء والعلماء يكونون شعراء بلغاء ،
 ولا يُخِلّ فقههم وعلمتهم بقيمة أدبهم .. ويحملني هذا
 أيضاً على إيراد تعليقه على أبيات للعلامة الشيخ تقي الدين بن
 دقيق العيد مما مثّل به في هذا الصدد وهي :

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح
 واختلف الأصحابُ ماذا الذي يُزيل من شكواهم أو يُريح
 فليل لي تعرّيسهم ساعةً وقلت بل ذكرك وهو الصحيح

وهذا نصّ التعليق : « قلت انظر إلى هذا النّظم ما ألفت
 تركيب ألفاظه وأ-علاه ، وكونه استعمل طريق الفقهاء في
 البحث في ذكر اختلاف الأصحاب ، وأنه قيل كذا وقيل
 كذا ، وقلت كذا وهو الصحيح ، كأنه إمامُ الحرّمين ،
 وقد ألقى درساً في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد
 رجّح ما رآه هو عنده من الدليل ، وما رأيت أحسن من هذا
 بينما هو يصف أحوالهم في السرى ومشاقّهم في التعب
 وتشاورهم فيما بينهم ، وما أشار به كل منهم في إزالة
 ما حصل لهم من العناء ، إذا به قد برز من بينهم برأي أدخل

فيه ذكر الممدوح ونصاً على تصحيحه ، فكأنه في حلقة
الدرس وقد شرع في مسألة خلافية . ويحرم هذا النظم على
غير الشيخ تقي الدين :

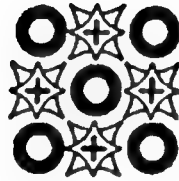
فلم تكُ تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
وما أحقّه لو أنشد قول الأرجاني :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدَافِع
في العصر ، لا بل أفقهُ الشعراء ...

وبعد هذا وذاك يُجَمِّلُ الصفدي الكلامَ في الموضوع
فيقول : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال
به إلى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده واستعملها في مقاصده
الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يرومه اصطلاحُ
ذلك الفن وأحكامه ، ألا ترى إلى أبي الفتح البُستي ومقاطيعه
المشهورة في الأدب والحِكم ، كيف يغلب عليها ألفاظ
الْمُنْجَمِينَ » .

وهذا هو الرأي والإنصاف في المسألة ، لا ما نقل ابن
خلدون عن الشاعر أبي العباس الجزنائي الذي بنينا عليه هذا
البحث ، وفتح الباب للطعن على أدب الفقهاء ، حتى أصبحت
كلمة نظمٍ فقيه تُقال لكل شعر نازل ، وتنوسي كل

ما للفقهاء من أدب رفيع وإنتاج شعري عال ؛ أوردنا بعضه
في الفصول المتقدمة ، وما بقي منه أكثر وأطيب ؛ وقد سُررنا
بما لقينا في كلام الأديب الصفدي من مُوافقةٍ لرأينا وتأييد
له ، ولذلك ختمنا به كلمتنا هذه والله الموفق .



فهرست

۳	مقدمة
۵	القسم الأول: مادته وأحكامه
۷	مدخل
۱۰	نقد كلمة الجزنائي
۱۳	أبو الفضل بن النحوي
۱۵	أدب الفقهاء باب واسع
۱۸	أدب مستقل
۱۹	تحقيق في قول عليّ للشعر
۲۴	عُرْوَة بن أَذَيْنَة
۲۸	عُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الله بن عَتْبَة بن مسعود
۳۰	مالك بن أنس
۳۳	الشافعي
۳۵	عبد الله بن المبارك
۳۸	أحمد بن المُعَذَّل
۴۱	القاضي عبد الوهاب
۴۴	منصور الفقيه
۴۶	الخطّابي
۴۷	المُعافى بن زكرياء

٤٨	محمد بن داود الظاهري
٥٠	ابن حزم
٥٧	أبو الوليد الباجي
٥٩	أبو بكر بن العربي
٦١	القاضي عياض
٦٤	ابن دُرَيْد
٦٩	الزَّمَخْشَرِي
٧١	أبو حَيَّان الغَرْنَاطِي
٧٣	يعقوب الكندي
٧٦	أبو بكر بن زُهْر
٨٠	ابن الياسمين
٨١	الشريف الإدريسي
٨٥	القسم الثاني : موضوعاته واغراضه
٨٩	شعر العاطفة والوجدان
١٠٨	الشعر الفلسفي
١٢٠	الأخلاق والآداب
١٤٣	المدح
١٦٤	الهجاء
١٧٥	الرثاء
١٩٢	شعر السير أو الملاحم

٢١٠	فنون شتى
٢٣٢	النظم التعليمي
٢٤٨	كلمة ختامية
٢٦١	الفهرست

أَدَبُ الْفُقَهَاءِ

إن كتابنا هذا هو عبارة عن بحث طريف في موضوع أدبي شائق، طالما أغفله الكتاب وتجنّى عليه النقاد، وهو أدب الفقهاء وخصوصاً شعرهم المغموز ظلماً بالضعف، والمضروب مثلاً لكل شعر ليس بذاك.

وقد قام المؤلف بتقسيمه إلى قسمين:

قسم تناول فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص. وقسم تعرض فيه لموضوعاته وأغراضه على سبيل البسط والتعريف. جاعلاً نصب عينيه أريحية الأدب والاهتمام بجمع شوارده ونظم فرائده التي درج مؤلفو الآداب على استبعادها من النصوص الأدبية لمجرد أنها إنتاج طائفة من الأدباء غلب عليهم وصف آخر غير الأدب وهو الفقه والعلم، مع أن في دراستها وعرضها العرض الذي يجلو محاسنها متعة وإثراء لأدبنا العربي الأصيل.

ISBN-13: 978-2-7451-8342-2



9 782745 183422

أنتسها من طبعات بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان

Est. by Mohammed Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon

Établie par Mohamed Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

ص.ب. 8424 - بيروت - لبنان

رقم قياسي: 1107 2290

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

هاتف: 804813 / 81

فاكس: 804813 / 5

info@al-ilmiyah.com

DKI www.al-ilmiyah.com



دار العلم
www.al-ilmiyah.com